# التصوف

# مرتبة الإحسان في الدين

إعداد

إبراهيم الحلبي



# بطاقة فهرسة



**مكتبة كنوز المعرفة**

اسم الكتاب: التصوف مرتبة الإحسان في الدين

إعـــــداد: إبراهيم الحلبي

رقم الإيداع:

**الطبعة الأولى** 2011




شارع جيهان ـ أمام بوابة الجامعة ت: ٠١٠٠٠٤٠٤٦

lokoboko_2@yahoo.com

# بسم الله الرحمن الرحيم

## تقديم

{ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى: ١٣].

{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾} [الواقعة: ١٠ - ١٤].

{ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾} [الرحمن: ٦٠].

**من الحديث القدسي:**

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

**﴿من عادي لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه﴾.**

(أخرجه البخاري في صحيحه)

" ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته فإن العبارة تفيد التمثيل والتقريب.. وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه وعرفه وخبره.. ولهذا يسمى أرباب الأحوال والأذواق بأهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر ".

- شيخ الإسلام ابن تيمية - مجموع فتاوى ابن تيمية - الجزء العاشر

- - -

" لقد اتخذ صوفية القرنين الثالث والرابع الهجري القرآن والسنة ميزانًا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية وكانت نتيجة ذلك أنهم عنوا بوجه خاص بناحية الزهد والعبادة والناحية الأخلاقية في التصوف إلى جانب الاتجاه الذوقي الكشفي الخالص الذي تميزوا به عن الفلاسفة الذين شاب ذوقهم شائبة من العقل والفلسفة وبناء عليه فيمكن أن نعتبر تصوف هذين القرنين تصوفًا سنيًّا إسلاميًّا ناضجًا اكتملت له كل مقوماته ".

د. أبو الوفا التفتازاني

أستاذ التصوف الإسلامي السابق

بجامعة القاهرة

* * *

# مقدمة

الحمد لله المحتجب بكبريائه عن درك العيون المتعزز بجلاله وجبروته عن لواحق الظنون. المتفرد بذاته عن شبه ذوات المخلوقين. المتنزه بصفاته عن صفات المحدثين. القديم الذي لم يزل، والباقي الذي لا يزال. المتعالي عن الأشباه والأضداد والأشكال. الدال لخلقه على وحدانيته بإعلامه وآياته. المتعرف إلى أوليائه بأسمائه ونعوته وصفاته. المقرب أسرارهم منه، والعاطف بقلوبهم عليه. المقبل عليهم بلطفه الجاذب لهم إليه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة شهد بها الموقنون.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد ﷺ عبده ورسوله النور الساطع والسر المصون اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون.

أما بعد..

فإن أمر الدين يحتاج للتجديد لِما يطرأ من أولي الإهمال والجهالة عليه، ولما يضيفه أرباب الأحقاد مما لم يكن منه إليه، يشهد لذلك قول النبي ﷺ :﴿**إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**﴾.

هذا لما يطرأ على الدين من موجبات التجديد.. ثبت عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه كان يقول: أنتم اليوم في زمان

الهوى فيه تابع للعلم، وسيأتي عليكم زمان يكون فيه العلم فيه تابعًا للهوى. وقد صح عن سيدنا (عبد الله بن عباس رضي الله عنهما) أنه قال: لا يأتي على الناس عام إلا أماتوا فيه سُنّة وأحْيَوْا بدعة حتى تموت السُّنَن وتحيا البدع. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يظهر المنكر والبدع حتى إذا غُير منها شيء قيل: غيرت السنة.

وأطال في حديثه المبارك ثم قال: أكيَسُهم في ذلك الزمان الذي يروغ بدينه روغان الثعالب، وفي سنة ثمانين وقد كان الحجاج الثقفي أميرًا على العراق من قبل الأمويين فقد كان سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: ما أعرف شيئًا كان على عهد رسول الله ﷺ إلا وقد غُير إلا شهادة أن لا إله إلا الله، قيل: فالصلاة؟ قال: أو ليس قد أحدثوا في الصلاة ما علمتم، يعني تأخيرها والتثويب قبلها، وهو السلام على الأمراء يضاهون به الإقامة فجعلوه كالسَّنة.

فهذه العوارض تطرأ على أمر الدين ولذلك يحتاج إلى التجديد فبالأولى أن يطرأ مثل ذلك على طريق الأولياء أهل المعرفة الذين تركوه للأمة وامتزجت فيه العادات المستحسنة لحكمة، وبدت فيه الأسرار الربانية لباعث.. فذلك الحال الذي هو سنن الأولياء في طريقتهم يحتاج في كل آن للتجديد، والمجددون من أهل العلم قليلون، ولا تزلق فترى من كثرة أتباعه وانتشرت أشياعه من المجددين، كلا بل المجدد من ظهرت على يديه أسرار إحياء السُّنة وإماتة البدعة، وشرفت أفعاله، وسلمت من الزيغ أقواله، وصح بالاتباع المحمدي حاله.

قال إمام الصدّيقين في زمانه، حكيم الأولياء (السيد أحمد الرفاعي): كل طريقة خالفت الشريعة فهي زندقة؛ فالطرق التي لم تشرق مناهجها بنور عِلمِ النبي ﷺ وعمله كلها باطلة، والطريق الحق طريقه ﷺ.

قال أشرف الخلق سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد ﷺ :﴿**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله**﴾.

وقال تعالى:{وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟} [الحشر: ٧].

وقال تعالى:{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا} [الأنعام: ١٥٣]، والصراط المستقيم طريق المصطفى الأعظم ﷺ وسُنّته.

وقد درج على اتِّباعِهِ عليه الصلاة والسلام آله وأصحابه والقوم الخُلَّص من السلف الصالح، ففازوا وغنموا؛ لأن من يعمل بسُنّته وحاله لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

وذلك لأن الله تعالى وعد من اهتدى بهديه عليه الصلاة والسلام بإعطاء زيادة الهُدى، فقال:{وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى} [محمد: ١٧]، {وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩].

وقد طرأ على طريق القوم ومنهاجهم منذ قرون العجائب من الأقوال والعادات، حتى كادت تدخل عند الكثير من أتباعهم في العبادات، وأقبحها والعياذ بالله تعالى القول بوحدة الوجود المطلقة، والازدلاف عن وهم إلى مشارب أهل الحلول، والأخذ بالتبجح والشطحات ونسبة التأثير إلى المخلوق استبداداً، وغير ذلك من المفاسد التي تضرُّ بالدين وتُدخل صاحبها في زمرة المخذولين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وقد صان الله تعالى طريقة الأولياء الكمل رضي الله عنهم من هذه المزالق، فهي إلى الآن لم توجد في أتباعهم، ولا قال بها منهم قائل، لا من كبارهم ولا من صغارهم.

وقد ابتلى هؤلاء الأولياء بمن يطعن في طريقهم ويمزق حالهم من جهة أخرى من بعض المتفقهة، ومن أولئك المتفقهة أناس صححوا اللسان وأمرضوا الجَنان، تزيَّنوا للناس في الظواهر، وأفسدوا البواطن، وأعملوا الألسن بمذمّة المسلمين، وقادوا الناس لسوء الظن بإخوانهم المؤمنين، ونسوا ما وجب عليهم من حقوق الله، وخالفوا فيما اقترفوه سُنن السلف الصالح عليهم رضوان الله.

وآخرون كبر علمهم عن عقولهم فلم يُحسِنوا التصرف في العلم، فخبطوا مع كثرة علمهم، وغلطوا ورفعوا بزفرة الدعوى أنفسَهم فسقطوا.

ومنهم أناس همهم الجعجعة بين العامة لجلب أنظار الرعاع إليهم، وجمع الغوغاء من الأطراف والأوباش عليهم لغرض في النفس حالة كونهم لا حظ لهم من الاتباع الصحيح، بل هم ساقطون وهذه الحال الشين القبيح.

ومنهم من يتحكم حمقاً بالأحكام فيصرفها إلى غير ما أتت به وله، يثبت منها ما أثبته، ويهمل ما أهمله. وما كل أولئك بفقهاء وإن شاع ذكر بعضهم، والتفَّتْ عليهم المحافل، وجادلَ لهم المُجادل

سأل فرقد رضي الله عنه الإمام (الحسن البصري رضي الله عنه) في مسألة فأجابه، فقال له: يا أبا سعيد! إن الفقهاء يخالفونك، فقال: ثكلتك أمك فُرَيقد، وهل رأيت بعينك فقيها؟ إنما الفقيه الزاهد

في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الكافُّ عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصحُ لجماعتهم.

وهذا كتاب لخصت فيه أفكار وآراء جماعة من الأولياء الذين يقتدى بهم في طريق الله عز وجل من أئمة أهل السنة ومقصودى من تأليفه فقه طريق القوم في التصوف من آداب المقامات والأحوال لا غير.. ولم أذكر من كلامهم إلا عيونه وجواهره دون ما شاركهم غيرهم فيه مما هو مسطور في كتب أئمة الشريعة ويجب أن أوضح وأؤكد أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة وأنها مبنية على سلوك وأخلاق الأنبياء والأصفياء.

فعلم التصوف كما أكد الإمام عبد الوهاب الشعراني (ت سنة 973هـ) إمام التصوف الإسلامي في مصر ومجدد القرن العاشر الهجري (أن التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما بصدق وإخلاص انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها قال تعالى:{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} [البقرة: ٢٨٢].

فالتصوف إذن هو زبدة عمل العبد بالشريعة إذا خلا من العلل وحظوظ النفس لكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة ولا يدرك ذلك إلا من تبحر في علم الشريعة ومن دقق النظر وعلم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة

وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة ولذلك قال الإمام الجنيد إمام الصوفية رحمه الله تعالى: (علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة) ردًّا على من توهم خروجه عنها في ذلك الزمان أو غيره.. وقال الإمام القشيري (ت 465هـ): ولم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من طائفة الصوفية إلا وأئمة ذلك الوقت من علماء الشريعة قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به ولولا مزية وخصوصية للقوم لكان الأمر بالعكس.

واعلم يا أخي الكريم أن ما من مسلم يقيم الفرائض ويجتنب المحرمات إلا وهو في بداية السَّير في الطريق إلى الله تعالى ثم يستقيم أمر المريد المتوجه إلى الله إذا اجتمعت له ثلاثة أمور:

أولاً: صدق التوجه إلى الله.

ثانياً: الشيخ الرباني العارف العالم العامل.

ثالثاً: المنهج العلمي والعملي القائم على الكتاب والسنة المنضبط بهما.

ثم اعلم يا أخي الكريم أن قراء هذا الكتاب أحد اثنين إنسان قرأه وله شيخ عارف عالم وارث فهذا لا يستغرب ما يمر عليه لأنه إما ذاقه أو يستشرف عليه وإنسان ليس له شيخ عارف وارث فهذا قد يتذوق وقد لا يتذوق وهو بين أمرين:

- **الأمر الأول:** إما أن يبحث عن عارف رباني يتتلمذ عليه وننصحه أن يتأنى ولا يستعجل إلا إذا كان على يقين أن من تتلمذ عليه اجتمع له كمال الظاهر والباطن وكان على بصيرة.

- **الأمر الثاني**: يقبل على الصلاة على رسول الله ﷺ فيكون ورده اليومي بالآلاف فقد قالوا:إن كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ تغني عن الشيخ المرشد الكامل إذا فقد، وقد أخذوا ذلك من قوله ﷺ لمن قال له: اجعل صلاتي كلها عليك؟ قال:﴿**إذن يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك**﴾ أخرجه أحمد في مسنده، كما أخذوه من قول الله جل جلاله:{ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ } [الأحزاب: ٤٣].. فما يصلي علينا به الله تعالى فيخرجنا من الظلمات إلى النور. صلاتنا على رسول الله ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح:﴿**من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرًا**﴾.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى وأن يجعله في صالح أعمالنا وميزان حسناتنا وأن ينفع به الأمة الإسلامية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

**إبراهيم الحلبي**

* * *

# تعريف التصوف

## كلمة الصوفية:

كثرت الآراء في نسبة كلمة " التصوف " فقيل: إنها نسبة إلى " الصفة " (بضم الصاد وتشديد الفاء المفتوحة) وهو مكان بمسجد الرسول كان يقيم فيه طائفة من الزهاد الفقراء يسمون " أهل الصفة "، وقيل: إنها منسوبة إلى " الصفة " (بكسر الصاد وفتح الفاء) لأن الصوفية يبحثون عن صفات الله تعالى ويتذاكرونها أو لأنهم يحاولون تحقيق صفات الخير في نفوسهم، وقيل: إنها منسوبة إلى " الصوفة " وهي القطعة الصغيرة من الصوف لأن الصوفي يحاول أن يكون أمام ربه ذليلاً كالصوفة لا تدبير له ولا اختيار، وقيل: إنها منسوبة إلى " صوفة القفا " وهي جلدة الرقبة الخلفية وهي لينة رقيقة وذلك لأن الصوفية أهل رقة ولين في المعاملة وقيل: إنها منسوبة إلى نبات " الصوفان " وهو نبات ضئيل لاقتصاد الصوفية واقتصارهم في الطعام على ما يشبه الصوفان في القلة، وقيل: إنها مأخوذة من قولهم: صاف السهم عن الهدف يصوف أي مال يميل وذلك لأن الصوفية يميلون عن الرذائل والسيئات إلى الفضائل والطاعات وقيل: إنها منسوبة إلى " الصفاء " لأن الصوفية يطهرون نفوسهم حتى تصفو وتنقى وقال في ذلك أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ::: وظنوه مأخوذًا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتىصافى فصوفي حتى سمي الصوفي

ولكن هذا الذي رفضه البستي هو الراجح عند أكثر الباحثين إذ يذهبون إلى أن " الصوفية " نسبة إلى " الصوف " لاشتهار أهل التصوف بلبس الصوف لما فيه من خشونة وقد أوردت كتب " التصوف الإسلامي " كثيرًا من النصوص التي تدل على ذلك.

وجاء في " شرح الشفا " للقاضي عياض العبارة التالية: " الصوفية واحدة صوفي ويقال: تصوف إذا انقطع إلى الله تعالى، كما يقال: تقيس إذا انتسب لقيس وهذا لفظ مولد واصطلاح حدث بعد القرن الأول، فقال بعضهم: الصوفي هو المنقطع بهمته إلى ربه وهم مقتدون بأهل الصفَّة رضي الله تعالى عنهم وهي سقيفة اتخذها ضعفاء الصحابة في مسجد النبي ﷺ، وكان قبل الإسلام حي يقال لهم: صوفة يخدمون الكعبة، فقيل: الصوفي نسبة لهم، وقيل: لأنهم تجمعوا كما تجمع الصوف وقيل: إنهم لخشوعهم كصوفة مطروحة على الأرض.. أو هم منسوبون للصوف للينهم وسهولة أخلاقهم أو لبسهم الصوف لاختيارهم الفقر وهذا أظهر الأقوال لفظا ومعنى ".

ويرى ابن خلدون في مقدمته أن الأظهر اشتقاق كلمة التصوف من " الصوف " لأن الصوفية مختصون بلبسه في الغالب، ونجد ابن تيمية في رسالته عن الصوفية والفقراء يقرر أن لفظ " الصوفية " لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة الأولى وإنما اشتُهر التكلم به بعد ذلك، وممن تكلم به أحمد بن حنبل وأبو سليمان الداراني وسفيان الثوري والحسن البصري وأن القوم تنازعوا المعنى الذي أضيف إليه " الصوفي " فإنه من أسماء النسب كالقرشي والمدني وأمثال ذلك.

ثم أخذ ابن تيمية يفند الأقوال فقرر أنه لا تصح النسبة إلى " أهل الصُّفة " لأنه لو كان كذلك لقيل " صُفِّي " ولا تصح النسبة إلى " الصف المقدم بين يدي الله " لأنه لو كان كذلك لقيل: " صَفي " ولا تصح إلى " الصفوة من خلق الله " لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة وتابعيهم أولى.

ثم يقول ابن تيمية أخيراً: " وقيل - وهو المعروف - أنه نسبة إلى الصوف " ويمضي في التدليل على أن هذا هو أقرب الروايات إلى القبول.

## نشأة التصوف:

يذكر ابن خلدون أن التصوف أحد العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها والانفراد عن الخلق وهذه الصفات كانت عامة في الصحابة والسلف ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني الهجري وما بعده اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة، وإذا كان المسلمون قد تخلقوا بأخلاق الصوفية في عهد الرسول وإن لم يعرفوا كلمة التصوف حينئذ فقد اختلفوا في أول من تكلم عن المعاني الصوفية الوجدانية وأسرار القلوب في هذا العهد فقيل: إنه الإمام علي بن أبي طالب، وقيل: أنه سلمان الفارسي، وقيل: إنه حذيفة بن اليمان وأن الحسن البصري تعلم عن حذيفة وقد قيل للحسن: يا أبا سعيد إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فممن أخذت هذا؟.. قال: من حذيفة بن اليمان وقد مات الحسن سنة عشر ومئة هجرية، وتلاه في المنزلة أبو

حمزة الصوفي الذي يعد أول من تكلم في مذاهب التصوف وهو القائل:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى ::: وأغنيتني بالقرب منك عن الكشف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ::: تبشرني بالغيب أنك بالكف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة ::: فتؤنسني بالعطف منك وباللطف
وتحيي محبًّا أنت في الحب حتفُه ::: وذا عجب كون الحياة مع الحتف!!

**مفهوم التصوف:**

هناك محاولات عديدة لتعريف التصوف وهي تعريفه بمعانيه الجزئية أو بأخلاق الصوفية أو ببعض ما ينبغي لهم من استقامة وسلوك وفي هذا المجال نجد فيضًا من التعريفات التي نسبت إلى أعلام التصوف وغيرهم وفيما يلي نورد طائفة من هذه التعريفات منسوبة إلى قائليها:

محمد بن علي القصاب أستاذ الجنيد: التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام.

الجنيد: التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة وقال أيضا: التصوف هو أن يميتك الله عنك ويحييك به.

رويم بن أحمد: التصوف استرسال النفس مع الله على ما يريده.

سمنون: التصوف أن لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء.

أبو محمد الحريري: التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني.. عمرو بن عثمان المكي: التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في الوقت.. على بن عبد

الرحيم القناد: التصوف نشر مقام واتصال بدوام ويذكر الطوسي في كتابه " اللمع " أنهم أجابوا عن معنى التصوف على هذه الطريقة بأكثر من مائة جواب، وكما فعلوا هكذا في معنى " التصوف " فعلوا في معنى " الصوفية " وفيما يلي نورد طائفة من تعريفات " الصوفي " أو " الصوفية " منسوبة إلى قائليها:

ذو النون المصري: الصوفي هو الذي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب والصوفية قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء..

الجنيد: الصوفية أثرة الله في خلقه يخفيها إذا أحب ويظهرها إذا أحب..

أبو الحسين النوري: الصوفي من سمع السماع وآثر بالأسباب.

أبو عبد الله بن الجلاء: الصوفي ليس نعرفه في شرط العلم، ولكن نعرفه فقيرًا مجردًا من الأسباب، كان مع الله عز وجل بلا مكان ولا يمنعه الحق من علم كل مكان..

سهل التستري: الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله دون البشر واستوى عنده الذهب والمدر..

أبو حمزة الخراساني: الصوفي من صفا من كل درن فلم يبق فيه وسخ المخالفات بحال..

أبو بكر الكتاني: الصوفي من عزفت نفسه عن الدنيا تظرفًا وعلت همته في الآخرة وسخت نفسه بالكل طلبًا وشوقًا إلى من له الكل..

ابن أبي سعدان: الصوفي هو الخارج عن النعوت والرسوم، والفقير هو الفاقد للأسباب ففقد السبب أوجب له اسم الفقر وسهل له الطريق إلى المسبب، وصفاء الصوفي عن النعوت والرسوم ألزمه اسم التصوف فصفى عن ممازجة الأكوان كلها بمصافاة من صافاه في الأزل بالأنوار والمبار..

أبو عثمان المغربي: الصوفي من يملك الأشياء اقتدارًا ولا يملكه شيء اقتهارًا.

أبو الحسن الحصري: الصوفي لا ينزعج في انزعاجه ولا يقر في قراره

أبو محمد الراسبي: لا يكون الصوفي صوفيًّا حتى لا تقله أرض ولا تظله سماء ولا يكون له قبول عند الخلق ويكون مرجعه في كل أحواله إلى الحق عز وجل..

الكتاني: الصوفية عبيد الظواهر أحرار البواطن..

بندار الشيرازي: الصوفية متفقون في الوحدانية في الجملة قولا متفرقون في الوصول إليها معاينة ومنازلة وكل واحد يستحق اسم ما ظهر عليه من حاله الذي هو به موصوف بعد اتفاقهم في الوحدانية قولا، فمن بين مجتهد وزاهد وعابد وخائف وراج وغني وفقير ومريد ومراد وصابر وراض ومتوكل ومحب ومستهتر ومستأنس ومشتاق وواله وهائم وواجد وفان وباق وأحوال يكثر تعدادها وقد تجتمع الأحوال كلها في واحد ويسمي بما عليه من الجميع..

وكأن شهاب الدين السهروردي - صاحب كتاب عوارف المعارف - قد أراد أن يذكر في معاني " الصوفي " الكثيرة ضابطا

يشملها فقال: " الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفي الأوقات عن شوائب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه فبدوام الافتقار ينقي من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته وبحركة نفسه تفرقته وكدره فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ} [النساء: ١٣٥]، وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف.

وقد أشار ابن خلدون إلى أن الصوفي يسلك طريق مجاهدته وعبادته فينشأ له عن كل مجاهدة حال، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما، وإما أن تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل، أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام حتى ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة وهذا السلوك يستلزم الإيمان والطاعة والإخلاص ومحاسبة النفس.

## التصوف مرتبة الإحسان:

التصوف الصحيح الصادق المستقيم يمكن أن نقول: أنه مرتبة " الإحسان " التي تلي مرتبتي " الإسلام " و " الإيمان " ومرتبة الإحسان هي التي يشير إليها الحديث النبوي الصحيح:﴿**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**﴾.

والإسلام هو الاستسلام الظاهر والإيمان هو الاعتقاد الباطن والإحسان هو التحقق بحقيقتي الظاهر والباطن وذلك لأن العلم لا بد له من العمل والعمل لا بد لكماله من الإخلاص والإخلاص هو ألا يريد العبد بعلمه أو عمله غير وجه الله جل جلاله فكأنه يعبده عبادة من يراه فهو على كل حال يخافه ويخشاه.

وهذه الأحوال الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان مراتب للسلوك والقرب من الله تعالى فالإسلام كما يقول العز بن عبد السلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين والإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين والإحسان أول مدارج الروح لخاصة المقربين، والعبد لا يصل إلى منازل القربات حتى يقطع ست عقبات هي:

1- فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية.
2- فطم النفس عن المألوفات العادية.
3- فطم القلب عن الرعونات البشرية.
4- فطم السر عن الكدورات الطبيعية.
5- فطم الروح عن التجارات الحسية.
6- فطم العقل عن الخيالات الوهمية.

والعبد له في قربه ثلاث مراتب: الأولى قرب الأبدان وهو العمل بالأركان والثانية هي قرب القلب وهو التصديق والإيمان، والثالثة هي قرب الروح وهو بالتحقيق والإحسان ومعنى هذا أن التصوف وهو تحقيق قمة الإحسان لا يدخل في طاقة العامة من الناس ولا يطالب به كل فرد بل هو لون خاص من المجاهدة

الروحية يطيقه أهله وكأن الصوفية يريدون بتصوفهم أن يقولوا للناس: إذا كنتم قد انصرفتم بكليتكم إلى الدنيا فها نحن أولاء قد انصرفنا عملا وقولا إلى الآخرة بكليتنا.

ويستدلون على إسلامية التصوف من الحديث النبوي بقول الرسول عليه الصلاة والسلام:﴿**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**﴾ ومتى صلحت هذه المضغة وتطهرت وصفت تحققت المجاهدة الصوفية التي تكشف حجاب الحس ويتعرض الصوفي بعدها للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي ويدرك من حقائق الوجود ما لا يدركه غيره..

ومن هذا يتضح أن التصوف ليس علمًا من العلوم المادية أو الطبيعية القائمة على البحث الحسي بأدواته من معمل ومخبار وتجربة محسة ولكنه علم روحي نفسي وهو بحر لجي متلاطم الأمواج فيه اللآلي والفرائد، وفيه أيضًا التيارات واللجج فهو موضوع شائك ومسلك صعب يحتاج إلى الملاح البصير والسابح الماهر الخبير، إذ ليست موضوعاته موضوعات حسابية أو عمليات رياضية يلوح فيها للمرء طريق واحد لا يتغير ولا ينحني بل موضوعاته هي الخطرات والسبحات والشطحات والنفحات واللمحات، وتلك أمور فيها من السر أكثر مما فيها من الجهر ومن الخفاء والغموض أكثر مما فيها من السهولة والوضوح.

ولذلك كثر في ميدان التصوف الجنود المجهولون الذين يصلون ويبلغون ولكن العامة من حولهم لا يشعرون، كما كثر في ميدانه

أيضًا الدجالون والمدعون ممن يجوز باطلهم على الناس حينًا من الزمن بفعل التكلف والرياء ثم يشف الثوب بعد قليل عما تحته فإذا لابسه من العراة المخذولين.

وقد غلب على الصوفية الميل إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية لأنهم يرون أن الطريق إلى العلم الحق يكون بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة من النفس وقطع العلائق كلها بالخلق والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى فإذا تحقق هذا كان الله جل جلاله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل بتنويره بنور العلم فيفيض عليه من الرحمة والإشراق والانشراح ما يكشف له الأسرار ويزيل عنه الحجب فتتلألأ فيه حقائق الأمور الإلهية.

والمتصوفون الحقيقون الصادقون المستقيمون الذين سلكوا وجاهدوا ووصلوا هم الذين يعنيهم الطوسي بقوله: " الصوفية هم أمناء الله عز وجل في أرضه وخزنة أسراره وعلمه وصفوته من خلقه فهم عباده المخلصون وأولياؤه المتقون وأحباؤه الصادقون الصالحون منهم الأخيار والسابقون والأبرار والمقربون والصديقون هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم وزين بخدمته جوارحهم وألهج بذكره ألسنتهم وطهر بمراقبته أسرارهم سبقت لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ودوام العناية فتوجهم بتاج الولاية وألبسهم حلل الهداية، وأقبل بقلوبهم عليه تعطفًا وجمعهم بين يديه تلطفًا، فاستغنوا به عما سواه وآثروه على ما دونه وانقطعوا إليه، وتوكلوا عليه وعكفوا ببابه ورضوا بقضائه وصبروا على بلائه وفارقوا فيه الأوطان وهجروا له الإخوان وتركوا من أجله الأنساب وقطعوا فيه العلائق وهربوا من الخلائق مستأنسين به مستوحشين مما

سواه: {ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].

ودائمًا يؤكد الصوفية أن التصوف والطريق التي تسلكها الصوفية هي اتباع نبوي فالصوفي يعبر عن معارفه في حدود المسموح به شرعًا ولا يمارس فتوحاته في الممنوع، يقول الجنيد بن محمد إمام الصوفية: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقه، ويقول أيضا: الطريق إلى الله مسدود على خلق الله (عز وجل) إلا المقتفين آثار الرسول ﷺ والتابعين لسنته، ويقول أيضا: من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه.

وكما دافع الجنيد عن السلوك الصوفي فهو بدافع عن العلم الصوفي.. فالعلم الصوفي هو علم إلهامي لدني موهوب لا يكتسبه الإنسان بالتعلم من الكتب أو من الناس بل يستفيده من " جلوسه بين يدي الله ".. قيل للجنيد: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة وأومأ إلى درجة في داره.

وهذا العلم الإلهامي وإن استفاده الإنسان من " جلوسه بين يدي الله " إلا لأنه ليس من عندياته بل الإنسان هنا أشبه بالمحل النقي الصافي العالي الشفافية الذي يمر به شعاع النور دون أن يتكسر أو يتحرف فيضيء على من حوله دون أن يمتلك النور.. يقول الجنيد: لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفنى ولكنه من حق بدأ وإلى الحق يعود.

وهذه العلوم الإلهامية التي تجري على ألسنة أشخاص اختصهم الله سبحانه بها لا تخرج عن إطار الحديث النبوي الشريف.. يقول

الجنيد: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، ويقول أيضًا: علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ.

ويعلي الجنيد هذه العلوم الإلهامية ويجد أنها أشرف العلوم لأنها تدل المخلوق على الطريق الموصل إلى الخالق.. ويقول الجنيد: لو علمت أن علمًا (تحت أديم السماء) أشرف من علمنا هذا لسعيت إليه وإلي أهله حتى اسمع منهم ذلك ولكن وعلي الرغم من أن هذه العلوم هي لخدمة الجنس البشري إلا أن الجنيد يرى أن تعامل كالجواهر النادرة والكنوز الثمينة فلا توضع في يد عوام الطالبين.

هذا العلم الذي يوازي نوادر الجواهر ويحق له أن يخبأ في السراديب لا خوف عليه إن ألقي به على أرصفة الشوارع.. لكن طاقته الإلهامية لا تنفتح إلا لصاحبها كالجوهرة التي تكون في يد غير مالكها حجارة عادية وترجع إلى كينونتها الجواهرية في يد صاحبها.. ويقول الجنيد: لو كان علمنا هذا مطروحًا على مزبلة لم يأخذ كل واحد منه إلا حظه على مقداره.

## الجانب النفسي في التجربة الصوفية:

لو راعينا الترتيب المنطقي في النظر إلى التجربة الصوفية وجدناها تتدرج في مستويات ثلاثة: مستوى نفسي أو وجدانى، ومستوى سلوكي، ومستوى فكري.

## المستوى الأول:

وهو المستوى النفسي أو الوجدانى تأخذ التجربة طابعًا وجدانيًّا خالصًا يتمثل في انطواء الصوفي على داخله محاولا الكشف عن أدق النزعات والخواطر التي تجول فيه وبتعرفه عليها يمكن

مقاوماتها كما تتمثل في الأحوال الوجدانية المتناقضة التي ترد على نفس الصوفي والتي تؤدي إلى وصوله إلى مرحلة عالية جدًّا من التصفية الروحية.

### المستوى الثاني:

وهو المستوى السلوكي والصوفي متفاعلا مع الناس والأشياء من حوله وطابع هذا التفاعل عملي يتصل بالالتزام الصارم بالأخلاق الدينية.

### المستوى الثالث:

أما المستوى الثالث فهو ما يعبر عن الموقف الفكري الذي ينشأ بالضرورة من الخطوتين السابقتين.

وهنا ينبه أعلام الصوفية إلى حقيقة طالما عبروا عنها بعد تجربتهم الوجدانية العميقة وهي أن التصوف في مستواه الفكري والتفسيري والتنظيري يكون قابلا للمناقشة والحوار والتساؤل لكنه في مستوى التجربة النفسية الوجدانية والسلوك لا يقبل مناقشة ولا يحتمل جدلا، ويزيد هذا الأمر وضوحًا إيراد هذا المثال الذي سجلته المراجع الصوفية عن الجنيد بن محمد - أبو القاسم الملقب بإمام الطائفة (ت267هـ) مع خاله السري السقطي (ت 245هـ) حول قضية " الحب الإلهي ".

فقد روى أن أناسًا أقبلوا على السري يسألونه عن " المحبة الإلهية " فأشار إلى ابن أخته الجنيد ليجيبهم عن سؤالهم فأخذ الجنيد يورد أقوال الصوفية في هذه الظاهرة وخاله يستمع إلى أن انتهى الجنيد من حديثه.. لكن خاله فيما يبدو لم يقتنع بما أورده الجنيد

فالتفت إليه وأمره أن يرفع كم خاله ليرى ما تحته، وفعل الجنيد ما أمره به خاله فرأى ذراعه ناحلا مهزولا حتى يكاد يلتصق جلده بعظمه وفي ضوء فزع الجنيد ودهشته لما رأى قال له خاله: يا بني المحبة أدناها ما رأيت ثم أنشد:

**ولما ذكرت الحب قالت كذبتني ::: ألست أرى منك العظام كواسيا**
**وما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا ::: وتخرس حتى لا تجيب المناديا**
**وتهزل حتى لا يبقى لك الهوى ::: سوى مقلة تبكي بها وتناجيا**

وما زال كذلك حتى أبكى الحاضرين.. ولذلك فإنني أفضل تناول هذه التجربة داخل التصوف الإسلامي من جانبها النفسي الوجداني وذلك لما يمتاز به هذا الجانب من خصوبة وإبداع وما يحتمل أن يسفر عنه من نتائج تتصل بالنفاذ إلى الجوهر الأصيل للتجربة الصوفية مجردة عن الظروف التاريخية أو الخلافات المذهبية التي أرى أنها شوهت كثيرًا من ملامحها هذا فضلا عن العناصر الروحية المضيئة التي يمكن أن نراها ونتمثلها في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى دفعة صوفية تواكب سلوكنا العملي وتبعث فيه مزيدًا من الحرارة.

يمكن أن نتخذ نقطة البدء: موقف التصوف الإسلامي من النفس ونسارع فنقول: إنه موقف يمتاز عن مثيله في الفلسفة الإسلامية (التقليدية) بخاصتين هامتين:

1) أنه موقف يتسم بالدقة في البحث والتواضع في روحه فهو لم يهتم بحقيقة النفس في ذاتها ولم يبحث مآلها ومصيرها الخارجين عن نطاق الظاهرة التي أمامه بقدر ما وجه اهتمامه إلى الآثار الصادرة

عن هذا الجزء غير المحسوس في الإنسان.. ذلك الجزء الذي حاول الفلاسفة تشريحه وبيان أقسامه وتحديد مواطنه في البدن (العقل في الرأس والغضب في القلب، والشهوة في البطن).

2) أنه موقف يمكن وصفه بالحركة والحيوية في مقابل موقف الفلاسفة الساكن من النفس يتضح ذلك من تصوير التصوف الإسلامي النفس: ذات شخصية لها طابعها السيال المتدفق المضطرب دائما بين الخوف والرجاء والهيبة والأنس والقبض والبسط.. إلخ.

ويمكن أن يقال: إن الفلسفة قد وصفت النفس في ثباتها، بينما رصدها التصوف في حركتها الدائبة.. ذلك أن الفيلسوف يلاحظ ويحلل ويقارن ثم يستخلص من ذلك كله ما يكون مبررًا لحكمه أما الصوفي فهو يعيش وينفعل ويتعثر ويندفع وهكذا تلقي التجربة الصوفية ذاتها ضوءًا يفسر لنا هذا الخلاف بين الموقفين.

لقد أعطي صوفية الإسلام للنفس قدرًا كبيرًا من اهتمامهم وربما ضاق المقام هنا عن سرد المؤلفات التي خصصت للموضوع فضلا عن استعراض ذلك الحشد الهائل الذي ورد متناثرًا في كتب التراجم والطبقات لكن ربما تكفي الإشارة إلى ما ذكره السهروردي من أن للصوفية علمًا من أعز علوم القوم هو علم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها.

يقول الكاشاني: " النفس هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحركة والإرادة.. وهي المشار إليها في القرآن بالشجرة الزيتونة الموصوفة بكونها مباركة لا شرقية ولا غربية، لازدياد

رتبة الإنسان بها ولكونها ليست من شرق عالم الأرواح المجردة ولا من غرب عالم الأجساد الكثيف ".

ثم يتحدث عن ثلاثة أنواع من النفوس، وهو في ذلك لا يقسم بقدر ما يصف حالات مختلفة قد تطرأ جميعها على نفس واحدة في أوقات متعاقبة..

## أنواع النفس:

### 1- النفس الأمارة:

هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب إلى الجهة السفلية فهي مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة قال تعالى:{إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ} [يوسف: ٥٣].

### 2- النفس اللوامة:

هي التي تنورت بنور القلب تنورًا قدر ما تنبهت به من سنة الغفلة فتيقظت وبدأت بإصلاح حالها مترددة بين جهتي الربوبية والخلقية.. فكلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية تداركها نور التنبيه الإلهي فأخذت تلوم نفسها وتتوب عنها مستغفرة راجعة إلى باب الغفار الرحيم ولهذا نوه الله بذكرها بالإقسام بها في قوله تعالى:{وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢} [القيامة: ٢].

### 3- النفس المطمئنة:

هي التي تم نورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية متابعة له في الترقي إلى جناب عالم القدس متنزهة عن جانب الرجس

مواظبة على الطاعات مساكنة إلى حضرة رفيع الدرجات حتى خاطبها ربها بقوله:{يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾} [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

ونحن نلاحظ أنه على الرغم من الأهمية المتساوية التي أعطاها الكاشاني لكل من النفوس الثلاثة فإن معظم الصوفية إن لم يكن كلهم قد ركزوا على " النفس الأمارة " وخصوها بمزيد من عنايتهم نظرًا لأنها " معدن كل سوء والداعية إلى كل بلية " ثم هي بعد ذلك عدو مقاوم صلب يقول السري السقطي: " أقوى القوة غلبتك نفسك ".

لقد أدرك الصوفية بحق أنهم أمام عدو عنيف ومن ثم تحول كل اهتمامهم إليه كما تنبهوا إلى ما يمتلكه هذا العدو من أسلحة خفية لكنها قاتلة، فراحوا يحذرون من مكر النفس وخداعها وزخرفها يقول المحاسبي: وهو من زعماء التحليل النفسي الدقيق: " فاحذرها (أي النفس) وفتشها، وخاصمها كما يخاصم الخصم الظلوم الخائن الموارب البليغ في حجته المزخرف القول الباطل بشدة بيانه.

ويرى الحكيم الترمذي إيغالاً في مقاومة النفس وترويضها أن يكون أدبها بمنع الحلال عنها حتى لا تطمع في الحرام.

وقد ذهب الكثير من الصوفية في مقاومة النفس ومعاداتها إلى أقصى مدى.. يعبر عن هذا الموقف أبو بكر الطمستاني بقوله: ما الحياة إلا في الموت: أي: ما حياة القلب إلا في إماتة النفس.

غير أن منهم من اتخذ موقفًا معتدلاً يقوم في أساسه على المعرفة الحقيقية بطبيعة النفس وقدرتها على تحمل العقاب الذي يفرض عليها من الصوفي فقال بأن موت النفس لا يتم نهائيًّا وإنما يمكن القول

بأنها تبقى فقط مقهورة مسجونة الرغبات.

لا نريد أن نلتمس من جانبنا مبررًا لهذا الموقف الصارم الذي اتخذه صوفية الإسلام من " النفس " وإنما حسبنا أن نستعرض كفاحهم في هذا الميدان وهو ميدان لا نجرؤ على خوض معاركه العنيفة، وإن كان لا يفارقنا الإعجاب والدهشة أمام رؤاه.

لقد وضع صوفية الإسلام المناهج النظرية لمعرفة النفس والوقوف على أغراضها وتتبع نزعاتها وكيفية مجاهدتها حتى تخرج في نهاية هذه المجاهدة عن ملك الشيطان وتصبح ملكا للصوفي الذي يرفعها بدوره إلى الله سبحانه وتعالى.

وإلى جانب ذلك طبق هؤلاء الصوفية على أنفسهم هذا المنهج فمزقوا من حوله ستار الخيال والتجريد، وعاشوا تجاربهم أعمق ما تكون ثم عبروا لنا عن ذلك في صدق وأصالة وبهذا خلفوا للأجيال من بعدهم تراثًا نابضًا بالحياة والقوة معا.

**الإلهام كوسيلة للمعرفة لدى الصوفية:**

يرى الصوفية أن العلم اليقيني أو العلم اللدني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم وأن هذه هي معرفة الأولياء فكل ما لا يعلمه الإنسان على هذا الوجه، ولا يتيقنه على هذا النحو من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني.

ويرى الإمام أبو حامد الغزالي وهو من أقطاب الصوفية " أن الطريق إلى إدراك المعرفة على هذا الوجه ليس العقل بمقاييسه واستدلالاته بل هو البصيرة والقلب فذلك طور وراء العقل ".

أما العقل فمع ثقته به وتقديسه إلى أبعد مدى فمجاله الحس أو مجاله عالم الملك أو الشهادة ومجال البصيرة والمشاهدة عالم الملكوت وهو ما وراء عالم الملك الممثل في السماوات والأرض وما بينهما.

وفي كلا الحالتين فالقلب وعاء العلم والمعرفة أو هو المرآة التي تنعكس عليها العلوم من هاتين النافذتين نافذة الحس ونافذة البصيرة.. فإذًا للقلب بابان باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة والأول طريق الأنبياء والأولياء. والثاني طريق العلماء ويعقد الغزالي موازنة بين كيفية حصول العلم الحسي في القلب وحصول العلم الخارج عن مدركات الحس وتقوم هذه الموازنة على أساس أن الإنسان نسخة من العالم أو كما يقول في تعبير آخر له، أن الإنسان عالم صغير في مقابلة العالم الكبير، فيمثل القلب بحوض محفور في الأرض معرض لأن يأتي إليه الماء من ظاهر الأرض عن طريق جداول صغيرة تصب فيه ويحتمل أيضا أن يحفر أسفله إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي، فينفجر الماء من أسفل الحوض فيكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك الماء هو العلم وتلك الجداول هي الحواس الخمس وهما مثال العلم الحسي وطريقة تحصيله أما ذلك الحفر وهذا الماء الذي نبع من باطن الأرض الحوض فهما مثال العلم علم الأنبياء والأولياء وطريقه هو تطهير القلب.

فالقلب يقبل كلا الطريقين طريق البحث وطريق الذوق فمن الممكن أن تساق العلوم إليه بواسطة أنهار الحواس والاعتبار

بالمشاهدات حتى يمتلئ علما، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمل إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله، فالعلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط.. ويضرب الغزالي لذلك مثالا هو ذلك المثال المشهور بنقش أهل الصين وأهل الروم وهو أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على عقد مسابقة بينهم فسلم إلى كل فريق منهم جانبًا من حائط وكان الجانبان متقابلين وأرخى بينهما حجابًا يمنع اطلاع كل فريق على الآخر فجمع أهل الروم من الألوان والأصباغ ما لا حصر له وما ليس له مثيل في الجودة.. ودخل أهل الصين من غير صبغ ولا لون ولكنهم أقبلوا على جانبهم يجلونه ويصقلونه فلما فرغ أهل الروم من نقشهم أعلن أهل الصين أيضًا أنهم فرغوا من نقشهم ورفع الحجاب وإذا بجانبهم تتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق، وإذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب، وهو يسمى ذلك العلم الذي يحصل بالاكتساب وصلة الدليل اعتبارًا واستبصارًا ويقابله علم الأولياء الذي لا يحصل بالاكتساب ولا حيلة الدليل بل يلقي ذوقًا وكشفًا ويسمي الغزالي علم الأولياء بعلم المكاشفة أو علم الباطن ويرى أنه علم طريق الآخرة.

ثم ينقل عن بعض العارفين أن من لم يكن له نصيب منه فإنه

يخاف عليه سوء الخاتمة وإن أدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله فهو علم الصديقين والمقربين وهو عبارة عن نور يقذفه الله عز وجل في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور حقيقة ما جاء به الوحي " فإن الأولياء إذا عملوا بما شرع لهم هبت عليهم من الحضرة الإلهية نفحات جود إلهي كشف لهم أعيان تلك الأمور الإلهية التي قيلت من رسول الله ﷺ وبناء على ذلك فليس من المقبول عند الصوفية أن يتعارض كشف الولي مع ما جاء به النبي ﷺ ولئن حدث شيء من ذلك فالواجب الرجوع إلى النبي ﷺ وقياسه بمقياس الشرع إذ من المقرر في هذه الحالة أن كشف الولي قد طرأ عليه الخلل بسبب أنه أقحم على كشفه نوعًا من التأويل الذي جاء به عن طريق الفكر والنظر.

فالرجوع إلى ميزان الشرع هو النداء الذي يوجهه أئمة الصوفية لأصحاب الكشف ويطالبونهم دائمًا به في كل ما يعن لهم من أمور استجابة لقوله تعالى:{فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ} [النساء: ٥٩]، وهنا نجد أن أئمة الصوفية يلتقون مع رائد السلفية شيخ الإسلام شمس الدين بن تيمية في أصل من أصول الكشف حيث يقول: " لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه أنه وحي لا في اليقظة ولا في المنام إلا بدليل يدل على ذلك " وبهذا فالقرآن والسنة هما أصل لأمور المعرفة والكشف عند الصوفية يقول ابن تيمية: " ومرد ما نراه من نظرة باطنية في أقوال الصوفية وتفسيرهم للنصوص الدينية يرجع إلى فهمهم العميق لتلك النصوص ذلك الفهم القائم على الاجتهاد وبذل الوسع في فهم تلك النصوص ".

ويقرر الإمام عبد الكريم القشيري وهو من كبار الفقهاء المتصوفين من أهل السنة والجماعة أن الصوفية متأثرون بروح الدين الإسلامي الذي عبر عنها الإمام على رضي الله عنه، وقد سئل: هل عندكم شيء من الوحي غير ما في كتاب الله عز وجل؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلا في القرآن.

والإمام الشوكاني كرائد من رواد السلفية يرى أنه ليس هناك ما يمنع من حدوث الكشف الذي يتحدث عنه الصوفية فيقول: " فأي مانع من أن يمد الله سبحانه وتعالى العبد من نوره فيصير صافيًا من كدورات الحيوانية الإنسانية لاحقًا بالعالم العلوي سامعًا بنور الله مبصرًا بنور الله؟ وخاصة أن الرسول ﷺ قد سأل الله ذلك وأن الله سبحانه وتعالى قد وصف عباده بذلك النور فقال:{نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} [التحريم: ٨]، فمن أمده الله سبحانه بنوره في جميع بدنه صار لاحقًا بالعالم العلوي ومن أمد عضوًا منه بنور الله صار ذلك العضو نورانيًّا فإن كان من الحواس كان لها من الإدراك ما لم يكن لغيرها من الحواس التي لم تمد بنور الله ".

## شواهد الشرع على صحة طريق الصوفية في اكتساب المعرفة عن طريق الإلهام:

وقد أورد الإمام أبو حامد الغزالي كثيرًا من الأدلة وشواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد ولكن عن طريق الإلهام حيث يقول في كتابه " إحياء علوم الدين ".

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدًّا ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات.

أما الشواهد: فقوله تعالى:{وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩} [العنكبوت: ٦٩]، فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام وقال ﷺ :﴿من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار﴾ وقال الله تعالى:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا} [الطلاق: ٢]، من الإشكالات والشبة:{وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ} [الطلاق: ٣]، يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة وقال الله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا} [الأنفال: ٢٩]، قيل: نوراً يفرق بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات، ولذلك كان ﷺ يكثر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام:﴿اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً واجعل في قلبي نوراً وفي قبري نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً حتى قال: في شعري وفي بشري وفي لحمي ودمي وعظامي﴾ وسئل ﷺ عن قول الله تعالى:{أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ} [الزمر: ٢٢]، ما هذا الشرح فقال:﴿هو التوسعة إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح﴾، وقال ﷺ لابن عباس:﴿اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل﴾ وقال علي رضي الله عنه: ما عندنا شيء أسره النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه وليس

هذا بالتعلم.. وقيل في تفسير قوله تعالى:{يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ} [البقرة: ٢٦٩] : إنه الفهم في كتاب الله، وقال تعالى:{فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ} [الأنبياء: ٧٩]، خص ما انكشف باسم الفهم وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم.

وقال ﷺ :《اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى》، وإليه يشير قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾} [الحجر: ٧٥]، وقوله تعالى: {قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ} [البقرة: ١١٨]، وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال:《العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع》 وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً، وقد قال ﷺ: 《إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم》، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ ولا محدّث} يعني الصديقين والمحدث هو الملهم والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة.

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف: وذلك علم من غير تعلم وقال الله تعالى:{إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾} [يونس: ٦]، خصصها بهم وقال تعالى:{هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾} [آل عمران: ١٣٨]، وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسى ما حفظه كان جاهلا وإنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس وهذا هو العلم الرباني وإليه

الإشارة بقوله تعالى:{وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: ٦٥]، مع أنه كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى بذلك علماً لدنيًّا بل اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر.

(ب) اصطلاحات مشيرة إلى الأحوال في الطريق الصوفي:

نورد في هذا الفصل شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية..

فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع تقواهم فعلمهم الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار وترسخ قدمهم في العلم.

فمما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيمًا من بعضهم للبعض وإشارة منهم إلى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها ومن هذه الكلمات:

المحبة:

ميل دائم بقلب هائم ويظهر هذا الميل أولا على الجوارح الظاهرة بالخدمة وهو مقام الأبرار وثانيًا على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية وهو مقام المريدين السالكين، وثالثًا على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين من شهود المحبوب وهو مقام العارفين فبداية المحبة ظهور أثرها بالخدمة ووسطها ظهور أثرها بالسكر والهيام ونهايتها ظهور بالسكون والصحو في مقام العرفان فلهذا انقسم

المؤمنون على ثلاث مراتب أرباب الخدمة وأرباب الأحوال وأرباب المقامات فبدايتها سلوك وخدمة ووسطها جذب وفناء ونهايتها صحو وبقاء.

**القبض والبسط:**

حالان شريفان من أحوال الحب الإلهي وهما بعد الترقي من حالي الخوف والرجاء والفرق بين القبض والخوف والبسط والرجاء أن الخوف متعلقة في المستقبل إما فوات محبوب أو هجوم محذور بخلاف القبض فإنه معنى يحصل في القلب إما بسبب أو لا وكذلك الرجاء يكون لانتظار محبوب في المستقبل والبسط شيء موهوب يحصل في الوقت فحقيقة القبض انكماش وضيق يحصل في القلب يوجب السكون والهدوء والبسط انطلاق وانشراح للقلب يوجب التحرك والانبساط ولكل واحد آداب مذكورة في المطولات.

**الفناء والبقاء:**

وقيل: الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل وقال الخراز: الفناء هو التلاشي بالحق والبقاء هو الحضور مع الحق.. وقال الجنيد: الفناء استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته وقال إبراهيم بن شيبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية وما كان غير ذلك فهو من المغاليط والزندقة. وسئل الخراز ما علامة الفاني؟ قال: علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى.

وقيل: ترك التدبير فناء وتمليك التدبير بقاء. وقيل: البقاء هو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق.

ويقول الصوفية: " الفناء دهليز البقاء ومنه يدخل إليه فمن صدق فناؤه صدق بقاؤه ومن كان عما سوى الله تعالى فناؤه كان بالله تعالى بقاؤه ولذلك قالوا: من كان في الله تعالى تلفه كان على الله تعالى خلفه فالفناء يوجب عذرهم والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء والبقاء يحضرهم مع الله تعالى في كل شيء فلا ينقطعون عنه في شيء، الفناء يميتهم والبقاء يحييهم ومن دكت جبال وجوده استمع داعي شهوده فصاحب البقاء يقوم عن الله وصاحب الفناء يقوم الله عنه.

## الجمع والتفرقة:

قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى:{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [آل عمران: ١٨]، فهذا جمع ثم فرق فقال:{وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ} [آل عمران: ١٨]، وقوله تعالى:{ءَامَنَّا بِٱللَّهِ} [البقرة: ١٣٦]، جمع ثم فرق بقوله تعالى:{وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة: ١٣٦]، والجمع أصل والتفرقة فرع فكل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل، وقال الجنيد: القرب بالوجد جمع وغيبته في البشرية تفرقة وقيل: جمعهم في المعرفة وفرقهم في الأحوال والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق فمتى شاهد غيره فما جمع والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة.. وعباراتهم كثيرة في ذلك والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة ويقولون: فلان في عين الجمع يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة وصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله والتفرقة من العلم بأمر الله ولا بد منهما جميعًا.

وقال بعضهم: الجمع عين الفناء بالله والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض وقد غلط قوم ادعوا أنهم في عين الجمع، وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فتزندقوا وإنما الجمع حكم الروح والتفرقة حكم القالب وما دام هذا التركيب باقيًا فلابد من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطي: إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت وإذا كنت قائمًا بغيرك فأنت فانٍ بلا جمع ولا تفرقة وقيل: جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته وقد يريدون بالجمع والتفرقة إنه إذا أثبت لنفسه كسبًا ونظر إلى أعماله فهو في التفرقة وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع ومجموع الإشارات ينبئ أن الكون يفرق والمكون يجمع فمن أفرد المكون جمع ومن نظر إلى الكون فرق فالتفرقة عبودية والجمع توحيد فإذا أثبت طاعته نظرًا إلى كسبه فرق وإذا أثبتها بالله جمع وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ويمكن أن يقال: رؤية الأفعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع.. سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال: أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كلم فكان المكلم والمكلم هو كيف يطيق موسي حمل الخطاب ورد الجواب لولا بإياه سمع ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ولولا تلك القوة ما قدر على السمع.

**ومن أقوالهم التجلي والاستتار:**

قال الجنيد: إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء.. فالاستتار هو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة

صفات القلب أما التجلي فقد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقي على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم فأمالهم فلأنهم به يرجعون إلى مصالح النفوس وأما لغيرهم فلأنه لولا مواضع الاستتار لم ينفع بهم لاستغراقهم في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار.

قال بعضهم: علامة تجلي الحق للأسرار هو أن يشهد السر من لا يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال، وقال بعضهم: التجلي رفع حجبه البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب.

**ومن أقوالهم التجريد والتفريد:**

الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبوديًّا وانقيادًا.. والتفريد أن لا يري نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه.. فالتجريد بنفي الأغيار والتفريد بنفي نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه.

ومن أقوالهم: الوجد والتواجد والوجود.

فالوجد ما يرد على الباطن من الله تعالى يكسبه فرحًا أو حزنًا ويغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله وهو فرحة يجدها المغلوب على صفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى.

والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل:

**قد كان يطربني وجدي فأقعدني ::: عن رؤية الوجد من في الوجد موجود**

**والوجد يطرب من في الوجد راحته ::: والوجد عند وجود الحق مفقود**

**ومن أقوالهم: الغلبة:**

والغلبة وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التميز فالوجد ينطفئ سريعًا والغلبة تبقي للأسرار حرزًا منيعًا.

**ومن أقوالهم: المسامرة:**

وهي تفرد الأرواح بخفي مناجاتها ولطيف مناغاتها في سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب.

**ومن أقوالهم: السكر والصحو:**

فالسكر استيلاء سلطان الحال والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال، قال بعضهم: السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب وقال الواسطي: مقامات الوجد أربعة: الذهول ثم الحيرة ثم السكر ثم الصحو كمن سمع بالبحر ثم دنا منه ثم دخل فيه ثم أخذته الأمواج فعلي هذا من بقي عليه أثر من سريان الحال فعليه أثر من السكر ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح فالسكر لأرباب القلوب والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب.

**ومن أقوالهم: المحو والإثبات:**

المحو بإزالة أوصاف النفوس والإثبات بما أدير عليهم من آثار

الحب كؤوس أو المحو محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه وما منه والإثبات إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به فهو بالحق لا بنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفًا بعد أن محاه عن أوصافه. قال ابن عطاء: يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم.

**ومن أقوالهم: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين:**

فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال.

وقال بعضهم: علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حق الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان الوحيد.. وقيل: لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالاسم والرسم للعوام وعلم اليقين للأولياء وعين اليقين لخواص الأولياء وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحقيقة اليقين اختص بها نبينا محمد ﷺ.

**ومن أقوالهم: الوقت:**

والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد وأغلب ما على العبد ووقته فإنه كالسيف يمضي الوقت بحكمه وبقطع.. وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا بكسبه فيتصرف فيه فيكون بحكمه يقال: فلان بحكم الوقت يعني مأخوذ عما منه بما للحق.

**ومنها الغيبة والشهود:**

فالشهود هو الحضور وقتًا بصفة المراقبة ووقتًا بوصف المشاهدة فما دام العبد موصوفًا بالشهود والرعاية فهو حاضر فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد

يعنون بالغيبة الغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعًا إلى حال الفناء.

**ومن أقوالهم: الذوق والشرب والري:**

فالذوق إيمان والشرب علم والري حال فالذوق لأرباب البواده والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع والري لأرباب الأحوال وذلك لأن الأحوال هي التي تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإنما هي لوامع وطوالع وقيل: الحال لا تستقر لأنها تحول فإذا استقرت تكون مقامًا.

**ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة:**

فالمحاضرة لأرباب التلوين والمشاهدة لأرباب التمكين والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر، فالمحاضرة لأهل العلم والمكاشفة لأهل العين والمشاهدة لأهل الحق أي حق اليقين.

**ومنها الطوارق والبوادي والباده والواقع والقادم والطوالع واللوامع واللوائح:**

وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى ويمكن بسط القول فيها ويكون حاصل ذلك راجع إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه، والمقصود أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقدماته وإذا صح الحال استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها.

**ومن أقوالهم: التلوين والتمكين:**

فالتلوين لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب وللقلوب تخلص إلى الصفات وللصفات تعدد بتعدد جهاتها فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن

عالم الصفات وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال وخرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التغير في الذات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلي الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكين لأن جريان التلوين في النفس لبقاء رسم الإنسانية وثبوت القدم في التمكين كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمكين أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر وإنما المعنى به أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدًا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال.

**ومن أقوالهم: (النفس) بفتح النون والفاء:**

ويقال: النفس للمنتهى والوقت للمبتدئ والحال للمتوسط فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدئ يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهي صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه مقيمة لا تتناوب عليه.

**ومنها المشاهدة والمعاينة:**

المشاهدة رؤية الذات اللطيفة في مظاهر تجلياتها الكثيفة فترجع إلى تكثيف اللطيف، فإذا ترقق الوداد ورجعت الأنوار الكثيفة لطيفة فهي المعاينة فترجع إلى تلطيف الكثيف، فالمعاينة أرق من المشاهدة

وأتم والحاصل أن شهود الذات لا يمكن إلا بواسطة تكثيف أسرارها اللطيفة في مظاهر التجليات، إذ لا يمكن إدراك اللطيف ما دام لطيفًا فرؤية التجليات كثيفة مشاهدة وردها إلى أصلها بانطباق بحر الأبدية عليها معاينة وقيل: هما سواء.

**ومن أقوالهم المعرفة:**

وهي التمكن من المشاهدة واتصالها، فهي شهود دائم بقلب هائم فلا يشهد إلا مولاه ولا يعرج على أحد سواه مع إقامة العدل وحفظ مراسم الشريعة فهذه حدود المقامات والأحوال قد انتهت في المعرفة.

**ومن أقوالهم الحرية:**

وهي تصفية الباطن من حب غير الحق لا تبقي فيه بقية لغير الله وهذه الحرية الكسبية هي سبب الظفر بالحرية الوهبية وهي غيبة العبد في مظاهر الرب فتنتفي ظلمة الحدوث في نور القدم وتختفي قوالب العبودية في تجلي مظاهر الربوبية، فيبقى الحق بلا خلق فحينئذ يكتب للعبد عقد الحرية فتكون عبادته وعبوديته شكرًا لا قهرًا كما قال سيد العارفين ﷺ :﴿**أفلا أكون عبدًا شكورًا**﴾، وقال إمام هذه الطائفة الجنيد: عبادة العارف تاج على الرؤوس يعني كمال الكمال.

**ومن أقوالهم الولاية:**

وهي حصول الأنس بعد المكابدة واعتناق الروح بعد المجاهدة وحاصلها تحقيق الفناء في الذات بعد ذهاب حس الكائنات فيفنى من لم يكن ويبقي من لم يزل، فأولها التمكن من الفناء ونهايتها التحقق بالبقاء وبقاء البقاء ويبقي الترقي والاتساع فيها أبدًا سرمدًا إلى ما لا نهاية له، قال إبراهيم بن أدهم لرجل: أتحب أن تكون لله وليًّا؟ قال:

نعم قال: لا ترغب في شيء من الدنيا والأخرى وفرغ نفسك لله عز وجل وأقبل بوجهك عليه يرفق عليك ويواليك.

وقال غيره: الولي من كان همه الله وشغله الله وفناؤه دائما في الله وتطلق على ثلاث مراتب: ولاية عامة وهي لأصل الإيمان والتقوى كما في الآية وهي قوله:{أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾} [يونس: ٦٢، ٦٣]، وولاية خاصة وهي لأهل الاستشراف على العلم بالله، وولاية خاصة الخاصة وهي لأهل التمكن في معرفة الله على نعت العيان، قيل: من أولياء الله يا رسول الله؟ قال:﴿المتحابون في الله﴾ وفي رواية:﴿الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها﴾ الحديث فشمل الحديث ولاية الخاصة وخاصة الخاصة.. وهذه كلها أحوال لأربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع ببركتهم آمين.

**صفة أرباب النهايات في الطريق الصوفي:**

أرباب النهايات في الطريق الصوفي استقامت بواطنهم وظواهرهم لله وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس ووطئت بساط القرب ونفوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب مجيبة إلى كل ما تجيب إليه القلوب أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى انطفأت فيهم نيران الهوى وتخمر في بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله ﷺ في حق أبى بكر رضي الله عنه:﴿من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر﴾ إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم الذي لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث قال الله تعالى:{فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢].

أرباب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم، قال يحيي بن معاذ وقد سئل عن وصف العارف فقال: رجل معهم بائن منهم وقال مرة: عبد كان فبان فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم معوقين بتوقيت الأجل جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهدي وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الإرادة كلامهم دواء ونظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم.

قال ذو النون: " علامة العارف ثلاثة لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله "، فأرباب النهايات كلما ازدادوا قربا وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرًا صافيًا، يتناولون الشهوات تارة رفقًا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذي يلطف بالشيء ويهدي له شيء لأنه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به.. وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء واختيارهم للتقلل من الشهوات الدنيوية: قال يحيى بن معاذ: الدنيا عروس تطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف بالله منشغل بسيده ولا يلتفت إليها.

والمنتهي مع كمال حاله لا يستغني أيضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع السير وقد غلط في ذلك خلق وظنوا أن المنتهي استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملذات والشهوات وهذا خطأ لا من حيث أنه يحجب العارف عن معرفته ولكن يوقف

عن مقام المزيد وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبه ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض واتسعوا في المأكل والمشرب وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال وتقيد بنور الحال وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ويوقف نفسه مقام العبيد كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى بإماطة الأذى عن الطريق ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود في صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة وهذا باب غامض دخل في النهايات من ذلك دواخل ووقع الركون وانسد به باب المزيد.

فالمنتهي ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحظوظ ففي الأعمال لا بد له من أخذ وترك فتارة يأتي بالأعمال كآحاد الصادقين وتارة يترك زيادة الأعمال رفقًا بالنفس وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقًا بالنفس وتارة يتركها فيكون في ذلك كله مختارًا.. وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتًا واختياره من اختيار الله ويأخذ وقتًا واختياره من اختيار الله.. وكل حال يستقر ويستقيم يشاكل حال رسول الله ﷺ وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول المباحات ولما قال الرجل: إنني عزمت أن لا آكل اللحم قال: فإني آكل اللحم وأحبه ولو سألت ربي أن يطعمني كل يقوم لأطعمني فالمنتهي يحاكي حاله حال رسول الله ﷺ في دعاء الخلق إلى الحق وكل ما كان يعتمده.. وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة لا

بد له من خلوة صحيحة بالحق حتى تكون جلوته في حماية خلوته.

قيل لمحمد بن الفضل: حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال.. حاجتهم إلى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلها ألا وهي الاستقامة وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة فاستقامة أرباب النهايات على التمام والعبد في الابتداء مأخوذ في الأعمال محجوب بها عن الأحوال وفي التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال وفي الانتهاء لا تحجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال وذلك هو الفضل العظيم وهذا يكون للمنتهي المراد المأخوذ في طريق المحبوبين تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية وتستتبع القلب والقلب يستتبع النفس والنفس تستتبع القالب فيكون بكليته قائمًا بالله ساجدًا بين يدي الله، كما قال رسول الله ﷺ :﴿**سجد لك سوادي وخيالي**﴾، وقال الله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝١٥} [الرعد: ١٥]، والظلال القوالب تسجد بسجود الأرواح وعند ذلك تسري روح المحبة في جميع أجزائهم وأبعاضهم فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا فيحبهم الله تعالى ويحببهم إلى خلقه نعمة منه عليهم وفضلاً، كما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ﴿**إن الله تعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل إن الله تعالى قد أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض**﴾.

## علامات الولاية لدى الصوفية:

أولياء الله هم عباده الصالحون،الذين نسلم عليهم في كل صلاة كلما قرأنا التشهد، وعلى رأسهم الأنبياء، عليهم صلوات الله وسلامه،

ثم يليهم في ولاية الله أتباعهم، فأصحاب سفينة نوح، وأصحاب ميقات موسى، والحواريون مع عيسى والراشدون، ومن تبعهم بإحسان، والصالحون المتقون وآل البيت من أمة مولانا رسول الله ﷺ، كل أولئك، ومن على أقدامهم هم الأولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ". القول في تأويل قوله تعالى:{أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾} [يونس: ٦٢]، ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله؛ لأن الله رضي عنهم فأمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. والأولياء جمع ولي، وهو النصير..

واختلف أهل التأويل فيمن يستحق هذا الاسم، فقال بعضهم: هم قوم يذكر الله لرؤيتهم لما عليهم من سيما الخير والإخبات. ذكر من قال ذلك: حدثنا أبو كريب وابن وكيع، قالا: ثنا ابن يمان، قال: ثنا ابن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس:{أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾} [يونس: ٦٢]، قال: الذين يذكر الله لرؤيتهم.

قال: ثنا ابن مهدي وعبيد الله، عن سفيان، عن العلاء بن المسيب، عن أبي الضحى، قال: سمعته يقول في هذه الآية:{أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾} [يونس: ٦٢]، قال: من الناس مفاتيح إذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم..

قال: ثنا أبي، عن مسعر، عن سهل أبي الأسد، عن سعيد بن جبير، قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله، فقال:﴿الذين إذا رؤوا ذكر الله﴾.

**والولى الوارث المحمدى له علامات يعرف بها:**

نور من أنوار النبوة يلوح واضحًا في وجهه تشع في قلب الرائى فيستريح له الفؤاد وإليه ينجذب فلا تجد تعبيرًا عن تلك النشوة والمشاعر إلا رغبة في تقبيل اليد الكريمة والتعاقد معها على طاعة الله تعالى.

صمته أشعة تهدى الحائر، وكلامه بلسم يشفى صاحب الداء الغائر.

أنفاسه تعطر القلوب والمكان وتصفى كوادر النفوس وترقى الأرواح.

**الشرط في الولى:**

الشرط الأول هو الإيمان.

والشرط الثاني هو التقوى.

كما جاء في الآية:{ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾} [فصلت: ١٨].

ثم الصلاحية للنيابة عن حضرة المصطفى ﷺ في الدعوة إلى الله، والله يتولى الصالحين لقوله تعالى:{وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ } [الأعراف: ١٩٦]. فالصلاحية بمعنى الصلاحية التي تستوجب كفاية معينة في الجوانب الثقافية والروحية، والذاتية والتعبدية، حتى يكون العبد أهلاً للتبليغ، ووارثة النبوة، وسيادة البشرية:{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾} [الأنبياء: ١٠٥]، وهنا ينكشف البون الهائل والفارق الواضح، ما بين (الولاية) و(البلاهة)، وما بين (الولاية) و(الاحتراف)، وأن الولاية كسب غال بمجهود أغلى أو هى اجتباء بحكم المشيئة الإلهية، كما جاء

بالآية:{ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى: ١٣]. وتعيين رجل توافرت فيه الشروط بوصف الولاية، لا يتعارض مع مبادئ الإسلام - فيما أعرف - وقد وصف علماء الحديث رجالاً بأوصافهم لا حرج. فأبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي القعنبي (له ترجمة في: تذكرة الحفاظ 1/ 383، والديباج المذهب 131، والعبر 382/1)، بفتح القاف وسكون العين، نسبة إلى جده. كان أصله من المدينة، وسكن البصرة، ومات بمكة، في شوال سنة إحدى وعشرون بعد المائتين، وكانت ولادته بعد ثلاثين ومائة، وأخذ عن مالك والليث بن سعد وحماد وشعبة وغيرهم، قال ابن معين: ما رأينا من يحدث لله إلا وكيعاً، والقعنبي، له فضائل جمّة، وكان مجاب الدعوات، وعُدّ من الأبدال.

روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله قال:﴿**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**﴾. هذا الحديث: " هو أشرف حديث روي في صفة الأولياء "، وقال الشوكاني: " هذا الحديث قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع، جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها وتدبرها كما ينبغي ".

## من هم أولياء الله؟

وصف الله أوليائه في كتابه فقال:{أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾} [يونس: ٦٢، ٦٣]، فوصفهم سبحانه بهذين الوصفين الإيمان والتقوى،

وهما ركنا الولاية الشرعية، فكل مؤمن تقي فهو لله ولي، وهذا يعني أن الباب مفتوح أمام من يريد أن يبلغ هذه المنزلة العلية والرتبة السنية، وذلك بالمواظبة على طاعة الله في كل حال، وإخلاص العمل له، ومتابعة رسوله ﷺ في الدقيق والجليل.

يقول الشوكاني: المعيار الذي تعرف به صحة الولاية، هو أن يكون عاملاً بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله ﷺ مؤثراً لهما على كل شيء، مقدماً لهما في إصداره وإيراده، وفي كل شؤونه، فإذا زاغ عنهما زاغت عنه ولايته "، وبذلك نعلم أن طريق الولاية الشرعي ليس سوى محبة الله وطاعته واتباع رسوله ﷺ، وأن كل من ادعى ولاية الله ومحبته بغير هذا الطريق، فهو كاذب في دعواه.

## حرمة معاداة أولياء الله:

أولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، وكل من آذى وليًّا لله بقول أو فعل، فإن الله يعلمه بأنه محارب له، وأنه سبحانه هو الذي يتولى الدفاع عنه، وليس للعبد قِبل ولا طاقة بمحاربة الله عز وجل، قال سبحانه:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ} [المائدة: ٥٥، ٥٦].

## درجات الولاية:

وبعد أن ذكر سبحانه وجوب موالاة أولياء الله وتحريم معاداتهم وعقوبة ذلك، ذكر طرق تحصيل هذه الولاية، فبيَّنَ أن أولياء الله على درجات منهم من هو في درجة الخفير ومنهم من هو في درجة الوزير، والأولياء الكمل يعرف بعضهم بعضًا، ومن الأولياء من هم

في درجة النقباء وطبقة النجباء وطبقة الأبدال وطبقة الأخيار وطبقة الغوث. ذكر الترمذي الحكيم في " نوادر الأصول ". وخرج أيضًا عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ :﴿إن الأنبياء كانوا أوتاد الأرض، فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم قومًا من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال؛ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم ولب، وتواضع في غير مذلة، فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه واستخلصهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صديقًا منهم ثلاثون رجلا على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن، يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس، وبهم يمطرون ومن يرزقون، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه﴾.

أخرج أحمد والحكيم الترمذي وابن عساكر عن على سمعت رسول الله ﷺ يقول:﴿الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا، يسقي بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب﴾. ولفظ ابن عساكر:﴿ويصرف عن أهل الأرض البلاء والغرق﴾.

وأخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ :﴿الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون﴾.

وأخرج أحمد في الزهد والخلال في كرامات الأولياء بسند صحيح عن ابن عباس قال: ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض.وأخرج الخلال عن ابن عمر قال: قال

رسول الله ﷺ :﴿**لا يزال أربعون رجلا يحفظ الله بهم الأرض، كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، فهم في الأرض كلها**﴾.

أخرج أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ إن لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة، فبهم يحيي، ويميت، ويمطر، وينبت، ويدفع البلاء. قيل لعبد الله بن مسعود: كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فينبت لهم الأرض، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء ". ونذكر معًا قوله تعالى: {لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾} [الزمر: ٣٤].

قال السخاوي: خبر الأبدال له طرق بألفاظ مختلفة، ثم ساق الأحاديث المذكورة هنا ثم قال: وأصح ما تقدم كله خبر أحمد عن علي مرفوعًا: البدلاء يكونون بالشام، وهم أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا؛ يسقي بهم (أي

بدعائهم) الغيث، وينصر بهم على الأعداء، ويصرف بهم عن أهل الشام العذاب. ثم قال (أي السخاوي): رجاله رجال الصحيح، غير شريح بن عبيد، وهو ثقة. انتهى (كلام السخاوي)، وقال السيوطي: خبر الأبدال صحيح، وإن شئت قلت: متواتر، وأطال. ثم قال (أي السيوطي): مثل هذا بالغ حد التواتر المعنوي، بحيث يقطع بصحة وجود الأبدال ضرورة، والحاصل كما ذكر السيوطي أن وجود الأبدال تواتر معنويًّا، حيث أن تعريف الخبر المتواتر هو ما بلغت طرقه حدًّا يستحيل معه التواطؤ على الكذب، وذلك بصرف النظر عن صحة تلك الطرق. فكيف وقد حكم بصحة بعض هذه الطرق أو حسنه. فنسأل الله أن يوفقنا لقبول الحق ويعصمنا من التعصب آمين.

### آثار محبة الله لأوليائه:

إذا استوجب العبد محبة الله ظهرت آثار المحبة عليه، وهذه الآثار بينها سبحانه في قوله:﴿**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**﴾، والمقصود أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل، قَرَّبه الله إليه ورَقَّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله كأنه يراه، فلا تنبعث جوارحه إلا بما يحبه مولاه، فإن نطق لم ينطق إلا بما يرضي الله، وإن سمع لم يسمع ما يسخط الله، وإن نظر لم ينظر إلى ما حرم الله، وإن بطش لم يبطش إلا لله، وهكذا، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث في غير الصحيحين: فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي.

## إجابة دعاء الولي:

وإذا بلغ العبد هذه المنزلة - منزلة الولاية - فإن الله يكرمه بأن يجعله مجاب الدعوة، فلا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، ولا يستعيذ به من شيء إلا أعاذه منه، وذلك لكرامته على الله تعالى، وقد عرف كثير من الصحابة بإجابة الدعاء، كالبراء بن مالك، و البراء بن عازب، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

## مفهوم العبادات عند الصوفية:

يحرص الصوفية على أداء العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج ولكنها تكتسب لديهم معاني ومذاقات روحية أعمق إذ يربطون فيها بين حركات الظاهر وتجليات الباطن وهم يعتبرون أركان عبادتي الصلاة والحج تمثل مراحل طريقهم التي قطعوها مرحلة مرحلة حتى تنعموا بالوصل وظفروا بنعيم القرب من الله عز وجل.

## الصــلاة:

الصلاة في اللغة بمعنى الذكر والانقياد وهي في جريان عبارات الفقهاء عبارة مخصوصة تطلق على هذه الأحكام المعتادة وهي أمر من الحق تعالى أن: أقيموها خمس مرات ولها شروط قبل الدخول فيها، أولها: الطهارة من النجاسة في الظاهر ومن الشهوة في الباطن، والثاني: طهارة الثوب من النجاسة في الظاهر وأن يكون من وجه الحلال في الباطن، والثالث: طهارة الروح من الحوادث والآفات في الظاهر ومن الفساد والمعصية في الباطن، والرابع: استقبال القبلة فقبلة الظاهر الكعبة وقبلة الباطن العرش، وقبلة السر المشاهدة، والخامس: قيام الظاهر في حال القدرة وقيام الباطن في روضة القرية، بشروط دخول وقتها في ظاهر الشريعة ودوام وقتها في

درجة الحقيقة، والسادس: خلوص النية في استقبال الحضرة، والسابع: التكبير في مقام الهيبة، والقيام في محل الوصلة والقراءة بترتيل وعظمة والركوع بخشوع والسجود بتذلل والتشهد باجتماع، والسلام بفناء الصفة.

والصلاة عبادة يجد فيها الصوفية طريق الحق من البداية إلى النهاية وتكشف فيها مقاماتهم: فالطهارة للصوفي في مكان التوبة والتعلق بشيخ في مكان التوجه إلى القبلة والقيام بمجاهدة النفس في مكان القيام ودوام الذكر في مكان القراءة والتواضع في مكان الركوع، ومعرفة النفس في مكان السجود والتشهد في مكان مقام الأنس والسلام في مكان التفريد من الدنيا والخروج من قيد المقامات ولذلك فإن الرسول ﷺ حين كان ينقطع عن كل المشارب، كان يطلب الشوق في محل كمال الحيرة ويتعلق بالمشرب، وعندئذ كان يقول: **﴿أرحنا بالصلاة يا بلال﴾**.

وقال الرسول ﷺ: **﴿جعلت قرة عيني في الصلاة﴾** أي أن كل راحتي في الصلاة؛ لأن مشرب أهل الاستقامة يكون في الصلاة.. وكان ذلك أنه حين عرج بالرسول ﷺ وبلغ درجة القرب، انقطعت نفسه عن الكون ووصلت إلى تلك الدرجة التي كان فيها قلبه: فوصلت النفس إلى درجة القلب والقلب إلى درجة الروح والروح إلى محل السر، وفني السر عن الدرجات، ومحي عن المقامات، وبقي بلا دلالة من الدلالات، وغاب عن المشاهدة في المشاهدة وتلاشى المشرب الإنساني واحترقت المادة النفسانية وانعدمت القوة الطبيعية وصارت الشواهد الربانية عيانًا في ولايته فلم يبق من نفسه بنفسه، ووصل المعنى إلى المعنى وانمحى في كشف لم يزل واختار بتشوق بلا

اختياره، وقال: " يا إلهي لا ترجعني إلى دار البلاء ثانية ولا تلق بي في قيد الطبع والهوى "، فجاءه الأمر هكذا حكمنا أن تعود إلى الدنيا لإقامة الشرع، لنعطيك هنالك أيضا ما أعطيناكه هنا.. فلما عاد إلى الدنيا كان كلما اشتاق إلى ذلك المقام المعلي يقول:﴿**أرحنا بالصلاة يا بلال**﴾ فكانت كل صلاة معراجا له وقربه، فكان الخلق يرونه في الصلاة وكانت روحه في صلاة، وقلبه في مناجاة وسره في تحليق ونفسه في انصهار حتى صارت الصلاة قرة عينه فكان جسده في الملك وروحه في الملكوت، كان جسده إنسيًّا وروحه في محل الأنس.

ويقول الصوفية: " لم يقل الله جل شأنه في سورة الإسراء أسري بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله وإنما كان كذلك لأنه أراد عز وجل أن يفتح باب الإسراء للأتباع فأعلمنا بأن الإسراء من بساط العبودية فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، أسري بروحه وجسمه وظاهره وباطنه فالأولياء لهم قسط من العبودية فلهم قسط من الإسراء يسري بأرواحهم لا بأشباحهم.

فأهل المجاهدة وأهل الاستقامة يكثرون من الصلاة كذلك يأمر المشايخ المريدون بكثرة الصلاة لتعويد الجسد على العبادة وأهل الاستقامة أيضا يصلون كثيرًا لشكر القبول في الحضرة.

ويقول الصوفية: " إن الملائكة دائمًا في الطاعة والعبادة مشربهم من الطاعة وغذاؤهم من العبادة، لأنهم روحانيون ولا نفوس لهم، والزاجر والمانع للعبد عن طاعة الله هو النفس الأمارة بالسوء، وكلما زيدت قهرًا يصير طريق التعبد أيسر وحين تفنى النفس يصير غذاؤه

ومشربه العبادة مثل الملائكة.

**الزكـــــاة:**

الزكاة من أحكام فرائض الإيمان على الشخص الذي تجب عليه، ولا وجه للإعراض عنها.

والزكاة تجب على إتمام النعمة، فعندما تكون مائتا درهم - وهى نعمة تامة تحت تصرف شخص بحكم الملك فإنه يجب عليه خمسة دراهم بعد مرور سنة - وخمسة من الإبل نعمة تامة ويجب عليها كبش، وما شابه ذلك من الأموال.

ولكن للجاه أيضاً زكاة كما للمال، لأنه أيضًا نعمة تامة كما قال رسول الله ﷺ :﴿**إن الله تعالى فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة مالكم**﴾، وأيضًا قوله ﷺ :﴿**إن لكل شيء زكاة، وزكاة الدار بيت الضيافة**﴾.

وحقيقة الزكاة أداء شكر النعمة من جنس النعمة.. والصحة نعمة عظيمة ولكل عضو زكاة وذلك أن يجعل الإنسان كل أعضائه مستغرقة في الخدمة ومشغولة بالعبادة، ولا يميل إلى أي لهو أو لعب حتى يكون قد أدى حق زكاة النعمة.

وللنعم الباطنة أيضًا زكاة، ولا يمكن إحصاء حقيقتها لكثرتها، فينبغي لها زكاة أيضًا تناسبها، وذلك عرفان النعمة الظاهرة والباطنة، وإذا عرف العبد أن نعمة الحق تعالى عليه لا حدود لها، فإنه يجب عليه زكاة النعمة التي لا حدود لها وشكر لا حد له.

وفى الجملة فإن زكاة النعمة والدنيا عند هذه الطائفة (الصوفية) غير محمودة لأن البخل غير محمود ويجب البخل التام ليحوز

شخص مائتي درهم ويحبسها تحت تصرفه سنة وعندئذ يخرج منها خمسة دراهم، ولما كان طريق الكرماء بذل المال وسيرتهم السخاء فعلى أي مال تجب الزكاة؟.

وفى الأثر أن واحدًا من علماء الظاهر سأل العارف بالله أبا بكر الشبلى عن الزكاة قائلاً: ما الذي يجب أن يعطى من الزكاة؟ قال: حين يكون البخل موجودًا ويحصل المال فيجب أن يعطى خمسة دراهم عن كل مائتي درهم، هذا في مذهبك أما في مذهبنا فيجب إلا تملك شيئاً حتى تتخلص من مشغلة الزكاة.

فسأله: من إمامك في هذه المسألة؟ قال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأنه أعطى كل ما كان يملك فقال له رسول الله ﷺ :﴿**ما خلفت لعيالك؟**﴾ قال: الله ورسوله.

ويروى عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال في قصيدة ما يلي:

فما وجبت على زكاة مال.

وهل تجب الزكاة على جواد؟

فأموال الكرماء مبذولة، ودماؤهم مهدرة، فلا هم يبخلون بالمال ولا هم يختصمون على الدماء لأنهم ليس لهم ملك.

**الصيـــــام:**

قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ } [البقرة: ١٨٣]، وقال النبي ﷺ خبرًا عن الله عز وجل:﴿**الصوم لي وأنا أجزي به**﴾ لأنه عبادة سرية لا تتعلق قط بالظاهر وليس للغير فيها نصيب، وجزاؤها

بلا نهاية.

وقيل: إن دخول الجنة للخلق بالرحمة، والدرجة بالعبادة، والخلود بجزاء الصوم لأن الله عز وجل قال:﴿**أنا أجزي بـه**﴾.

وقال الجنيد إمـام طائفة الصوفية رضي الله عنه: " الصوم نصف الطريـقة " وكـان كثيـر مـن مشـايخ الصـوفية يصـومون فـي غيـر رمضان دون أن يعلم أحد به تركا للرياء.

وحقيقة الصـوم هـي الإمسـاك، والطريـقة كلهـا مضـمرة فـي هـذا، وأقل درجة في الصوم هي الجوع " طعام الله في الأرض " والجوع محمود بجميع الألسنة بين الخلـق شرعًا وعقلاً، ويجب صـوم شـهر على العاقل، البالغ، المسلم، الصحيح، المقيم وبدايتـه من رؤيـة هلال رمضان أو كمال شهر شعبان ويلزم لكل يوم النية الصحيحة والشرط الصادق.

وللإمساك شروط فكما أنك تحفظ الجوف من الطعـام والشراب، فإنه يجب أن تحفظ العين من النظر إلى الحرام والشهوة، والأذن من الاستماع إلى اللهو والغيبـة واللسـان من قول اللغو والآفـة، والجسد مـن متابعـة الـدنيا ومخالفـة الشـرع، وعندئـذ يكـون هـذا هـو الصـوم الحقيقي، كما قال رسول الله ﷺ :﴿**إذا صمت فليصـم سـمعك وبصرك ولسانك ويدك وكل عضو فيك**﴾، وقولـه ﷺ :﴿**رب صـائم لـيس لـه مـن صومه إلا الجوع والعطش**﴾.

ويقول الصوفية: " ليس العجب ممن تـاه فـي نصـف ميل أربعين سنة وإنما العجب ممن تاه في مقدار شبر ستين أو سبعين سنة وهي البطن ".

---

الحـــج:

قولـــه تعـــالى:{وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧]، والحج من الفرائض المفروضة فرض عين على العبد في حالة صحة العقل والبلوغ والإسلام وحصول الاستطاعة ويكون ذلـك بـالإحرام بالميقـات، وطـواف الزيـارة والسـعي بـين الصـفا والمروى والوقوف بعرفات إلخ.. " ويسمون الحرم حرمًا لأن فيه مقام إبراهيم ولأنه محل الأمن وقد كان لإبراهيم عليه السلام مقامان: أحدهما مقام الجسد والآخر مقام القلب، فمقام الجسد هو مكة، ومقام القلب هو الخلة، وكل من يقصد مقام جسده يجب أن يعرض عن جميع الشهوات واللذات ليكون محرمًا، ويلبس الكفن ويكف اليد عن الصيد الحلال، ويقيد جميع الحواس، ويحضر في عرفات، ويذهب من هناك إلى المزدلفة والمشعر الحرام، ويأخذ الجمرات ويطوف بالكعبة في مكة، ويذهب إلى منى ويبقى هناك ثلاثة أيام، ويرمي الجمرات بشروطها، وهناك يطلق شعره ويضحي ويرتدي ملابسه ليكون حاجًّا.

وأيضًا عندما يقصد شخص مقام قلبه يجب عليه أن يعرض عن المألوفات بترك اللذات والراحات، ويحرم عن ذكر الغير - ومن هناك يكون الالتفات إلى الكون محظورًا، وعندئذ يقوم بعرفات المعرفة، ويقصد من هناك إلى مزدلفة الألفة، ويبعث سره من هناك لطواف حرم تنزيه الحق، ويرمي جمرات الهوى والخواطر الفاسدة بمنى الأمان، ويقدم النفس قربانًا في مذبح المجاهدة، حتى يصل إلى مقام الخلة، فيكون دخول ذلك المقام أمانًا من الأعداء وسيوفهم، ودخول هذا المقام أمانًا من القطيعة وأخواتها.

جاء رجل إلى الجنيد رضي الله عنه فقال له الجنيد: من أين جئت؟ فقال: كنت في الحج قال: هل حججت؟، قال: نعم، قال: هل رحلت عن جميع المعاصي منذ خرجت في البداية من بيتك ورحلت عن وطنك؟، فقال: كلا. قال: لم ترحل ثم قال: حين خرجت من البيت وأقمت كل ليلة بمنزل، هل قطعت في هذا المقام مقامًا من مقامات طريق الحق؟ فقال: كلا، قال: لم تقطع منزلا، ثم قال: حينما أحرمت في المقيات، هل تجردت من صفات البشرية كما تجردت من ثيابك؟ فقال: كلا، قال: إذن لم تحرم، ثم قال: حين وقفت بعرفات، هل لاح الوقت في كشف المشاهدة؟ فقال: كلا، قال: إذن لم تقف بعرفات. وقال: حين ذهبت إلى المزدلفة وحصل مرادك، هل تركت جميع الرغبات النفسانية؟ فقال: كلا. قال: لم تذهب إلى المزدلفة، وقال: حين طفت بالكعبة هل رأيت سرك في محل تنزيه لطائف حضرة جمال الحق؟ فقال: كلا. قال: لم تطف، ثم قال: حين سعيت بين الصفا والمروة، هل أدركت مقام الصفاء ودرجة المروءة؟ فقال: كلا. قال: إنك لم تسع بعد وقال: حينما جئت إلى منى، هل سقط عنك مناك؟ فقال: كلا. قال: لم تذهب إلى منى بعد ثم قال: عندما ضحيت في المنحر هل ضحيت برغبات نفسك؟ فقال: كلا. قال: فلم تضح وقال: عندما رميت الجمرات، هل رميت كل ما صحبت من المعاني النفسية؟ فقال: كلا. قال: فلم تلق الجمرات بعد، ولم تحج، فعد وحج على هذا النحو حتى تصل إلى مقام إبراهيم.

## أدعياء التصوف:

التصوف أمر ما خفي منه أضعاف ما ظهر؛ لأنه يتعلق بالقلوب والأرواح والنفوس، ولا يدور حول الأشكال والظواهر، ولذلك تكثر

في ميادينه الدعاوى ما بين صادقة وكاذبة، ولعل هذا هو السبب في اختلاط الصادقين بالكاذبين في هذا المجال، وعدم تبين الموصولين بأسباب الله من المفترين والمدعين والمحترفين.

وهذا الطوسي المتوفى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وصاحب كتاب اللمع أول كتاب وضع في التصوف يخبرنا بأن هناك من يتشبه بالصوفية ويتسمى باسمهم عن طريق الادعاء فكيف لو أدرك أزمانًا بعد زمانه طفح فيها الكيل وزاد الويل.

لقد قال بعض المعاصرين الذين هالهم الادعاء في هذا الميدان: " كان التصوف حالا فصار كارًا وكان احتسابًا فصار اكتسابًا، وكان استتارًا فصار اشتهارًا وكان اتباعًا للسلف فصار اتباعًا للعلف وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور، وكان تعففًا فصار تكلفًا، وكان تخلقًّا فصار تملقًا، وكان سقمًا فصار لقمًا، وكان قناعة فصار فجاعة، وكان تجريدًا فصار ثريدًا ".

وشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية يرى أن الصوفية ثلاثة أقسام:

فهناك صوفية الحقائق وهم المستقيمون والصادقون والقسم الثاني: صوفية الأرزاق وهم الذين يتمتعون بأوقاف الخوانق (أجمع خانقاه) وكانت تطلق على دور الصوفية " والتكايا، والحقيقي بين هؤلاء نادرا عزيز ولكي يصبح الواحد من هؤلاء جديرًا باسم الصوفية عليه أن يؤدي الفرائض ويتجنب المحارم، وأن يتأدب بالآداب الشرعية وألا يكون متمسكًا بفضول الدنيا، وأما من كان جماعًا للمال أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية فإنه لا يستحق ذلك والقسم الثالث " صوفية الرسم "

أي صوفية الشكل والظاهر وهم المقتصرون على النسبة فهمهم اللباس مع الادعاء.

وبسبب هذا القسم الثالث رأينا من يغلو في ذم التصوف والصوفية والصواب كما يقول ابن تيمية : " أن الصوفية مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده واجتباء الله له، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من يجتهد فيخطأ وفيهم من يذنب ويتوب ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ولكنهم عند المحققين ليسوا منهم " ويضيف شيخ الإسلام ابن تيمية : " وغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين وكالمطعون عليه من المتفقهين يرد قولهم ويجتنب فعلهم ولا يترك المذهب الحق الثابت بنسبتهم له وظهورهم فيه ".

## موقف كبار علماء الأمة من التصوف والصوفية:

الإمام مالك رحمه الله تعالى:

يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى: (مَنْ تفقَّهَ ولم يتصوف فقد تفسق، ومَنْ تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمعَ بينهما فقد تحقَّق) [حاشية العلامة على العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي ج3. ص195. وشرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا على القاري المتوفى 1014هـ. ج1. ص33. والإمام مالك رحمه الله تعالى أحد الأئمة الأربعة المشهورين توفي سنة 179هـ في المدينة المنورة].

---

### الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى [الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أحد الأئمة الأربعة المشهورين توفي في مصر سنة 204هـ]: (صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، وفي رواية سوى ثلاث كلمات:

قولهم: الوقت سيف إِن لم تقطعه قطعك.

وقولهم: نفسَك إِن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقولهم: العدم عصمة تأييد الحقيقة العلية للإِمام جلال الدين السيوطي ص15.

وقال أيضاً: (حُبِّبَ إِليَّ من دنياكم ثلاث: تركُ التكلف، وعِشرةُ الخلق بالتلطُّف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) [" كشف الخفاء ومزيل الإِلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس " للإِمام العجلوني المتوفى سنة 1162هـ. ج1. ص341].

### الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى:

كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى [الإمام أحمد رحمه الله تعالى أحد الأئمة الأربعة المشهورين توفي سنة 241هـ] قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله رحمه الله تعالى: (يا ولدي عليك بالحديث، وإِياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإِنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه. فلمَّا صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإِنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة) [" تنوير القلوب " ص405 للعلامة

الشيخ أمين الكردي المتوفى سنة 1332هـ.

ونقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي رحمه الله تعالى أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى قال عن الصوفية: (لا أعلم أقواماً أفضل منهم. قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة..) " غذاء الألباب شرح منظومة الآداب " ج1 ص120.

**عبد القاهر البغدادي رحمه الله تعالى:**

قال الإمام الكبير حجة المتكلمين عبد القاهر البغدادي رحمه الله تعالى في كتابه الفَرْقُ بين الفِرَقِ.

والصنف السادس منهم: الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا، واختَبروا فاعتبروا، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أُولئك مسؤول عن الخير والشر، ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدُّوا خير الإعداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريقَيْ العبارة والإشارة على سَمْتِ أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياء، ولا يتركونه حياء، دينُهم التوحيد ونفي التشبيه، ومذهبهم التفويضُ إلى الله تعالى، والتوكلُ عليه والتسليمُ لأمره، والقناعةُ بما رزقوا، والإعراضُ عن الاعتراض عليه: {ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤} [الجمعة: ٤].

**الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى:**

قال العلامة الكبير والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين:

والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألاَّ يخلو سرَّهم وبالَهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين) [اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام فخر الدين الرازي ص72، 73.

**العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى:**

قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى وأخذ التصوف عن شهاب الدين السهروردي، وسلك على يد الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، وكان يقول إذا حضر مجلسه وسمع كلامه: هذا كلام قريب العهد بالله..

قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم، ومما يدلك على ذلك، ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربات الحق لهم، ورضاه عنهم، ولو كان العلم من غير عمل، يرضي الحق تعالى كل الرضا، لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم، ولو لم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات [نور التحقيق للشيخ حامد صقر ص96.

**الإمام النووي رحمه الله تعالى:**

جاء في طبقات الشافعية ج1 ص 151 أنه أخذ طريق القوم عن شيخه السيد ياسين بن يوسف الزركشي وكان رحمه الله بارعًا في علوم الحديث واللغة والنحو والفقه وعلوم الصوفية.

قال النووي رحمه الله تعالى في رسالته المقاصد: أصول طريق

التصوف خمسة:

تقوى الله في السر والعلانية.

اتباع السنة في الأقوال والأفعال.

الإِعراض عن الخلق في الإِقبال والإِدبار.

الرضا عن الله في القليل والكثير.

- الرجوع إِلى الله في السراء والضراء [مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف ص20].

**الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى:**

إِن كثيراً من الجهال، يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الاتباع والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به. فأول شيء بَنَوْا عليه طريقهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها، حتى زعم مُذكِّرُهُم وحافظ مأخذهم، وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري: إِنهم إِنما اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع. فذكر أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم باسم عَلَمٍ سوى الصحبة، إِذ لا فضيلةَ فوقها، ثم سمي من يليهم التابعون، ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية في الدين: الزهاد والعبَّاد. قال: ثم ظهرت البدع وادَّعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعُبَّاداً، فانفرد خواص أهل السنة، المراعون أنفسهم مع الله، والحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف، فتأمل تغنم، والله أعلم) [المسلم مجلة العشيرة المحمدية، عدد ذي القعدة سنة 1373هـ].

---

**ابن خلدون رحمه الله تعالى:**

وقال ابن خلدون رحمه الله تعالى في كلامه عن علم التصوف: (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم طريقةَ الحق والهداية، وأصلُها العكوفُ على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراضُ عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهدُ فيما يُقبِل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفرادُ عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف، فلمَّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) [مقدمة ابن خلدون ص328. وهو عبد الرحمن بن الشيخ أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي ولد عام 732هـ وتوفي سنة 808هـ

**تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى:**

وقال الشيخ تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى في كتابه معيد النعم ومبيد النقم، تحت عنوان الصوفية حَيَّاهمُ الله وبيَّاهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم. وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المُتلبِّسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حدَّ لهم. والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة.. ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويُستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنَّا بهم [كتاب معيد النعم ومبيد النقم ص119 للإمام تاج الدين عبد الوهاب السبكي المتوفى سنة 771هـ].

**جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى:**

وقال العلامة المشهور جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه تأييد الحقيقة العليَّة: (إن التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبرِّي من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها، والتسليمِ لله، والرضى به وبقضائه، وطلبِ محبته، واحتقارِ ما سواه وعلمتُ أيضاً أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، فوجَّه أهل العلم للتمييز بين الصنفين ليُعلمَ أهل الحق من أهل الباطل، وقد تأملتُ الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم أرَ صوفيًّا محقِّقاً يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاةُ الذين ادَّعَوْا أنهم صوفية وليسوا منهم) [تأييد الحقيقة العلية ص57. للعلامة جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ].

**الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله:**

غالب كتبه مشحونة بذكر الصوفية وإيراد أقوالهم ووصف أحوالهم، كما وأورد في ج1 من كتابه الذيل على طبقات الحنابلة مجموعة من الحنابلة من مشايخ الحركة السلفية ممن مجدوا التصوف وأعزوه حيث أورد في ص211 في ترجمة الإمام أبي محمد بن عبد الله بن علي البغدادي قصيدته التي مطلعها:

**ترك التكلف في التصوف واجب ::: ومن المحال تكلف الفقراء**
**قوم إذا امتد الظلام رأيتهم ::: يتركعون تركع القراء**
**والوجد منهم في الوجوه محله ::: ثم السماع محله في الأعضاء**
**وتراهم بين الأنام إذا أتوا ::: مثل النجوم الغر في الظلماء**

أما فيما يتعلق بأقوال ابن رجب فهي متعددة إلا أنها تصب في بحر واحد وهو بحر الثناء والاعتراف بالجميل للسادة الصوفية فنجده يحكي عن أبي عمرو القرشي فيقول: " وانتهت إليه تربية المريدين بمصر وانتهى إليه خلق كثير من الصلحاء وأثنى عليه المشايخ وحصل له قبول من الخاص والعام وانتفع بصحبته خلق كثير. وفي حديثه عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ص290 ج1 من كتابه " الذيل " يقول " شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة وهو صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة. أما في ص384 فيورد الشيخ سعد بن عثمان القرشي قائلا: " هو أحد الزهاد الأبدال الأوتاد ومن تشد إليه الرحال ومن كان لله عليه إقبال. كان عبدًا صالحًا مشهورًا بالعبادة والمجاهدة والورع.

**الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله:**

وقد جمع هذا الحافظ في كتابه " تذكرة الحفاظ " جملة من أحوال مشايخ الصوفية حيث يقول رحمه الله الإمام الحافظ الزاهد شيخ الحرم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد الصوفي صاحب التصانيف وكان ثقة عارفا عابدا ربانيا كبير القدر بعيد الصيت " وتقرأ ج3 من كتابه تذكرة الحفاظ فتصادف قوله هذا " محمد بن داود بن سليمان الحافظ الزاهد الحجة شيخ الصوفية " وفي نهاية كتابه يقول: " لزمت الشيخ الإمام المحدث مفيد الجماعة أبا الحسين على بن مسعود بن نفيس الموصلي وسمعت منه جملة وكان ديِّنًا خيرًا متصوفًا متعففًا قرأ ما لا يوصف كثرة وحصل أصولا كثيرة كان يجوع ويبتاعها " فلنتأمل في كون هذا الشيخ هو الوحيد من مشايخ الحافظ الذي ذكر

أنه لزمه أما البقية فسمع عنهم وحسب. ومما أوقفتني قراءته قوله رحمه الله في ص108 في معجم شيوخه " عن محمد بن أحمد الدمشقي: شيخ الإسلام وفقيه الشام وقدوة العباد وفريد وقته من اجتمعت الألسن على مدحه والثناء عليه. " وكان كثير التعظيم للصوفية والمحبة لهم.

قال الذهبي: فَإِنَّمَا التَّصَوُّف وَالتَأَلُّه وَالسُّلوك وَالسَّيْر وَالمَحَبَّة مَا جَاءَ عَنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد ﷺ مِنَ الرِّضَا عَنِ اللهِ، وَلزوم تَقْوَى الله، وَالجِهَادِ فِي سَبِيْل الله، وَالتَأَدُّب بآدَاب الشَّرِيعَة مِنَ التِّلاَوَة بترتيلٍ وَتدبُّرٍ، وَالقِيَامِ بخَشْيَةٍ وَخشوعٍ، وَصَوْمِ وَقتٍ، وَإِفطَار وَقت، وَبَذْلَ المَعْرُوْف، وَكَثْرَة الإِيثَار، وَتَعْلِيم العَوَام، وَالتَّوَاضع لِلْمُؤْمِنين، وَالتعزُّز عَلَى الكَافرين، وَمَعَ هَذَا فَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاء إِلَى صرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ. وَالعَالِمُ إِذَا عَرِيَ مِنَ التَّصوف وَالتَأَلُّه، فَهُوَ فَارغ، كَمَا أَنَّ الصُّوْفِيّ إِذَا عرِيَ مِنْ عِلْمِ السُّنَّة، زَلَّ عَنْ سوَاءِ السَّبيل.

وقال في ترجمة الجنيد شيخ الصوفية: أَبُو نُعَيْمٍ:حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ هَارُوْنَ، وَآخَرُ، قَالاَ: سَمِعْنَا الجُنَيْدَ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُوْلُ:عِلْمُنَا مَضْبُوطٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الكِتَابَ وَيَكْتُبِ الحَدِيْثَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ، لاَ يُقْتَدَى بِهِ. قَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ بنُ عُلْوَانٍ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُوْلُ: عِلْمُنَا - يَعْنِي: التَّصَوُّفَ - مُشَبَّكٌ بِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الجَرِيْرِيُّ:سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُوْلُ مَا أَخَذْنَا التَّصَوُّفَ عَنِ القَالِ وَالقِيْلِ، بَلْ عَنِ الجُوْعِ، وَتَركِ الدُّنْيَا، وَقَطْعِ المَأْلُوفَاتِ، قُلْتُ:هَذَا حَسَنٌ، وَمُرَادُهُ:قَطْعُ أَكْثَرِ المَأْلُوْفَاتِ، وَتَرْكُ فُضُوْلِ الدُّنْيَا، وَجُوْعٌ بِلاَ إِفرَاطٍ، أَمَّا مَنْ بَالَغَ فِي الجُوعِ - كَمَا يَفْعَلُهُ الرُّهبَانُ -

وَرَفَضَ سَائِرَ الدُّنْيَا وَمَأْلُوفَاتِ النَّفْسِ مِنَ الغِذَاءِ وَالنَّومِ وَالأَهْلِ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِبَلاَءٍ عَرِيْضٍ، وَرُبَّمَا خُولِطَ فِي عَقْلِهِ، وَفَاتَهُ بِذَلِكَ كَثِيْرٌ مِنَ الحَنِيْفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً.

وَالسَّعَادَةُ فِي مُتَابَعَةِ السُّنَنِ، فَزِنِ الأُمُورَ بِالعَدْلِ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَالزَمِ الوَرَعَ فِي القُوْتِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ، وَاصْمُتْ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ، فَرَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجُنَيْدِ، وَأَيْنَ مِثْلُ الجُنَيْدِ فِي عِلْمِهِ وَحَالِهِ؟

وقال في ترجمة الجوعي (أَبُو عَبْدِ المَلِكِ القَاسِمُ بنُ عُثْمَانَ العَبْدِيُّ) شيخ الصوفية:

كَانَ زَاهِدَ الوَقْتِ هَذَا الجُوْعِيُّ بِدِمَشْقَ، وَالسَّرِيُّ السَّقَطِيُّ بِبَغْدَادَ، وَأَحْمَدُ بنُ حَرْبٍ بِنَيْسَابُوْرَ، وَذُو النُّوْنِ بِمِصْرَ وَمُحَمَّدُ بنُ أَسْلَمَ بِطُوْسَ. وَأَيْنَ مِثْلُ هَؤُلاَءِ السَّادَةِ؟ مَا يَمْلأُ عَيْنِي إِلاَّ التُّرَابُ أَوْ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ

وقال: مَتَى رَأَيْتَ الصُّوْفِيَّ مُكِبًّا عَلَى الحَدِيْثِ، فَثِقْ بِهِ، وَمَتَى رَأَيْتَهُ نَائِياً عَنِ الحَدِيْثِ، فَلاَ تَفرَحْ بِهِ.

**الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله:**

أما هذا الإمام الكبير فتحدث عن مشايخ الصوفية في كتابه البداية والنهاية ونذكر منهم في ج11 ص180 محمد بن إسماعيل المعروف بخير النساج أبو الحسين الصوفي من كبار المشايخ ذوي الأحوال الصالحة والكرامات المشهورة. أما في ج11 ص113 فقد أطال الحديث عن الجنيد سيد الطائفة وفي ج13 ص93 يقول: منهم الشيخ عبد الله البوني الملقب أسد الشام رحمه الله ورضي عنه وكانت له

زاويـة يقصـدها للزيـارة وكـان مـن الصـالحين الكبـار المشـهورين بالعبـادة والرياضـة والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر لـه همـة عاليـة فـي الزهـد والـورع وفـي ص138 يقـول: مـنهم الشـيخ شـهاب الـدين السـهروردي.. مـن كبـار الصـالحين وسـادات المسـلمين وشـيخ الصـوفية ببغداد كانت فيـه مـروءة وإغاثـة للملهـوف وأمـر بـالمعروف ونـهي عن المنكر.

وفي أخريات أيامه دخل الإمام الجليل في صـف الصـوفية وأخذ الطريقـة الشـاذلية عـن نجـم الـدين الأصـفهاني كتـاب نكـت الهيمـان للصالح الصفدي)

**الإمام الغزالي رحمه الله:**

وها هو ذا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى يتحـدث فـي كتابـه المنقذ مـن الضـلال عـن الصـوفية وعـن سـلوكهم وطريقتهم الحقة الموصلة إلى الله تعالى فيقول:

ولقـد علمـت يقينـاً أن الصـوفية هـم السـالكون لطريـق الله تعـالى خاصــة وأن سـيرتهم أحسـن السـيرة، وطـريقتهم أصـوب الطـرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.. ثم يقول رداً على من أنكر علـى الصـوفية وتـهجَّم عليهم وبالجملـة فمـاذا يقـول القـائلون فـي طريقـةٍ طهارتُهـا - وهـي أول شـروطها - تطهيـرُ القلـب بالكليـة عمـا سـوى الله تعـالى، ومفتاحها الجـاري منهـا مجرى التحـريم مـن الصـلاة استغراقُ القلـب بالكليـة بـذكر الله، وآخرهـا الفنـاء بالكليـة فـي الله [المنقذ مـن الضـلال لحجة الإسلام الغزالي المتوفى سنة 505هـ. ص131

**شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:**

تحدث شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة في الجزء العاشر من مجموع فتاويه فقال: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر [الجيلاني] والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت. وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم [مجموع فتاوى أحمد بن تيمية ج10. ص516 - 517.

يقول في ج11 ص18 يقول: والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله.

مجموعة الفتاوى ج11 ص510: وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان و القرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ وتلقاه عنهم التابعون وبذلك يحصل أتباع السابقين الأولين بإحسان. فكما أن المرء له من يعلمه القرآن والنحو فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر.

**العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله:**

يقول العلامة ابن القيم في كتابه " مدارج السالكين " ج1 ص135: أنهم (الصوفية) كانوا أجل من هذا وهممهم أعلى وأشرف إنما هم حائمون على اكتساب الحكمة والمعرفة وصهارة القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة..

أما في ج2 ص307 فنجده يقول:

التصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى.

وفي ص39 نجده يجسد نظرة ابن تيمية فيقول: وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس: إحداهما حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لما حل من هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقًا وهذا عدوان وإسراف.. وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذر منها سادات القوم وذموا عاقبتها وتبرءوا منها.

أما في كتابه " طريق الهجرتين " ص261 - 260: ومنها أن هذا العلم (التصوف) هو من أشرف علوم العباد وليس بعد علم التوحيد أشرف منه وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة.

* * *

# نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي

## مدخل: التصوف بين الصيت والرؤية العلمية:

ظُلم التصوف الإسلامي في كثير من قراءات الناس له، ربما بسبب المصطلح - كما يذكر البعض وربما بسبب انحراف بعض المنتسبين إليه، وربما بسبب حرب بعض الاتجاهات الفكرية له وهو ما أشاع عنه أنه وافد ليست الحياة الإسلامية بحاجة إليه، فضلاً عن أنه مبتدَع، تسبب في إبعاد ذويه عن الإسهام الحضاري وعن الارتباط بالأصول الشرعية، وهذه الأسباب وغيرها - بصرف النظر عن صحتها أو صحة بعضها أو عدم صحته - تقرر حقيقة أن هذا الجزء من تراث المسلمين أصابه قسط كبير من الظلم، لا نغالي إذا قلنا لم يُصب بمثله جزء آخر من تراث حضارتنا.

* ملخص دراسة للدكتور أبو اليزيد العجمى الأستاذ بجامعة الأزهر بهذا العنوان.

وقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي اتجاهات لنقد التصوف بعضها من داخله لتصحيح المسار، وبعضها من خارجه - وهو بيت القصيد - ذهب أهل هذا الأخير مذاهب، أحدها مَدَح حتى الأخطاء، وسوغها بالتأويل، وثانيها غض طرفه عن كل حسن في هذا التراث، فلم ير فيه إلا كل خلل وفساد، وانطلق من حالات فردية إلى حكم عام وموقف شامل، وثالثها توسّط، لكنه لم يكن على شهرة السابقين.

وقد عانى الفكر الصوفي من المذهبين الأولين، بل وحجب كلٌّ

جزءًا من الحقيقة عن الناس؛ الأمر الذي جعل كثيرًا من العلماء والباحثين قديمًا وحديثًا ينادون بضرورة التزام منهج وسط بين الرفض المطلق والقبول المطلق.

وتعددت أشكال نداءاتهم، فمن قائل بضرورة المنهجية قبل الحكم والنقد، ومن قائل بضرورة التريث قبل الحكم على السابقين، ومن قائل بضرورة النظر إلى كل زوايا التصوف، واعتبار كل مراحله عند التقسيم.

وقديمًا تبنى هذه الدعوة علم من أعلام العلماء المحافظين، فنادى بخطأ القبول المطلق والرفض المطلق، وجعل الحكم هوى إن كان صادرًا عن حب مطلق أو بعض مطلق. ذلكم هو شيخ الإسلام ابن تيمية الذي سار في هذا الأمر على درب سابقين له من العلماء الحنابلة

وإذا كان هناك اتفاق بين دعوة المعاصرين ودعوة ابن تيمية ومن سبقه، فإن هناك فارقًا أساسيًا هو أن المعاصرين لم يقدموا تصورًا كاملاً للمنهج الذي ينبغي أن تكون عليه قراءة التصوف، بل أشاروا إلى بعض النقاط بإيجاز وإجمال، أما ابن تيمية فقد قدم تصورًا أكثر تفصيلاً عن المنهج في نقد التصوف، بل وطبّقه في النظر إلى مراحل التصوف، وإلى المصطلح، وإلى رجال التصوف ونحو هذا.

لكن نقول أيضًا: إن هذا التصور عنده مبثوث في شتى كتاباته عن التصوف، وعن السلوك، بل وعن العقيدة أيضًا؛ الأمر الذي لم

يجعله شهيرًا من الدارسين، وبخاصة أنه أشيع عن عداء شيخ الإسلام للتصوف الكثير.

فرغبةً في الإفادة من تراثنا الروحي في حياتنا المعاصرة، ورغبة في إنصاف هذا الجزء من تراثنا، وإيمانًا بضرورة المنهج في قراءة التراث بل وغير التراث، وانضمامًا إلى صفوف العلماء والباحثين المنادين بذلك، ورغبة كذلك في إبراز الموقف المنهجي الحق لشيخ الإسلام ابن تيمية.. لهذه الأسباب وما في بابها رأيت أن أقدّم تصورًا لكيفية القراءة المنهجية للتراث الصوفي، آملاً أن أضع به نقطة ضوء أمام الدارسين الباحثين عن الحق والمستهدفين الإفادة من التراث للمعاصرة دون تكلف أو افتعال.

وقد جمعت شتات إشارات من هنا ومن هناك، وتطبيقات تناثرت في ثنايا البحوث وأضفت إليها رؤيتي وخبرة صلتي بهذا الجزء من تراثنا لأقدّم هذه الرؤية التي بين يدي القارئ، محاولاً ألا أحيد عن العدل في حكمي أو تعليقي؛ التزامًا بالمنهج الذي أدعو إليه، على طريق علماء سبقوا وباحثين لا يزالون يعطون العلم خبراتهم ورؤاهم.

**ضوابط منهجية لقراءة التصوف الإسلامي:**

أقرر في البداية أن هذه الضوابط وليدة تأمل طويل لما أثير حول التصوف الإسلامي وما أريد بتقييمه مدحًا أو قدحًا، وقد حاولت - قدر الطاقة - أن أرجع المظاهر التي يأخذها إلى أسبابها الحقيقية المتصلة بطرق التفكير ومناهج البحث، حيث ظهر ذلك من خلال بعض الكتابات التي التزمت بمنهاج دقيق للقراءة، وبعضها الآخر

الذي أعوزته الروح الدقيقة لقراءة العلم والحكم عليه والإفادة منه.

ولكي نفيد من هذا الجزء، من تراثنا ينبغي - إضافة إلى الوعي بالحقائق التي أشرنا إليها - أن نلتزم بما يلي:

أولاً: ضرورة تجاوز نقاط الخلاف الشكلية والدخول إلى المضمون

أعني بذلك أن نفرّق بين أمرين يتصل أحدهما بالآخر بشكل ما: الأول: حقيقة ومضمون ما يسمى بالتصوف أو الزهد الإسلامي، والثاني: هذا الاسم الذي أطلق عليه وصار مصطلحًا له ظروفه التاريخية والعلمية.

فتحديد الهدف من القراءة وهو الإفادة من الماضي للحاضر، يقوّي ما نشير إليه من ضرورة الدخول إلى المضمون مباشرة، والدخول إلى المضمون سوف يضيّق هوة الخلاف - إن لم يقض عليها نهائيًّا - بين المتحاورين حول هذا الجزء من تراثنا، ذلك أن الأخلاق التي هي أبرز ممارسات هذا التراث سمتٌ أصيل للإسلام ذاته، فإذا كان البعض يقرر هذه الحقيقة - وهي أن التصوف خُلُق - بالنسبة للتصوف الإسلامي واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق.. إن هذا العلم مبني على الإرادة فهي أساسه ومجمع بنائه، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهي حركة القلب؛ ولذا سُمّي بعلم الباطن كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سمي بعلم الظاهر، يقول الكتاني: " التصوف هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء.

وإذا كان هذا هو جزء هام من مضمون التصوف الإسلامي فإن من المقرر أنه أخذه من قوام الدين الإسلام الذي نشأ في كنفه. فقد امتدح القرآن نبي الإسلام محمدًا ﷺ بقوله:{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤]، وفُسّرت بأنك على دين عظيم أي الإسلام. وهو ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله:﴿إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق﴾ وقول عائشة رضي الله عنها في وصف الرسول الكريم: كان خلقه القرآن.

كذلك فإن التزكية وأدب النفس بتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل - وهي أبرز إن لم تكن كل غايات التصوف متضمنة حتى الجوانب المعرفية فيه - حقيقة شرعية قررها الكتاب والسنة، وطبّقها الرسول ﷺ، وصحابته والتابعون، ومن سار سيرهم، وكان لذلك كله أثره في الحياة الإسلامية اعتدالاً وزهدًا، وشجاعة في الحق ونحو هذا مما تلتزم به النفس الزكية المحسنة، و(لو) رجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين، وتأملنا في القرآن والحديث، وجدنا القرآن ينوه بشعبة من شعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ " التزكية " ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الكريم لتحقيقها (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)، وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم.

وتحديد الهدف والدخول إلى المضمون لتحقيق أمر منهجي يؤدي الالتزام به إلى الالتقاء حول الحقيقة الشرعية التي " هي الكيفيات الباطنية التي تصاحب الأعمال والهيئات عند أدائها وهي أخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام، وتجعل منها علمًا مستقلاً وفقهًا منفردًا.

وهذا ما حدث فعلاً، فقد اتفق على هذه الحقيقة الشرعية - وهي مضمون التصوف - علماء اختلفت مشاربهم لكنهم جميعًا مسلمون يعرفون حقائق دينهم، فقد قرر هذه الحقيقة ابن القيم، وابن خلدون، والقشيري، وغيرهم مشيرين جميعًا إلى أن إطلاق لفظ الزهاد أو العباد أمر له ظروفه التاريخية، وجودًا ودلالة، وذلك لا يقدح في حقيقة المسمى والدخول إلى المضمون مباشرة يجنبنا أن نقع فيما أسماه البعض بجناية المصطلح على حقيقته ومضمونه، فقد كان مصطلح " التصوف " والخلاف حول دلالته، وتعريفاته، طريقًا للخلاف بين قراء المسلمين، حجبهم فيه الوقوف أمام الشكل عن حقيقة التزكية والتربية والإسهام الاجتماعي وكل خير قدمه التصوف الإسلامي لمجتمعه باعتباره فكرًا إسلاميًا، تضرب جذوره في مصادر الإسلام، ويأخذ نماذجه وقدوته من سيرة الرسول الكريم وصحابته ومن سار على طريقهم.

كل هذا حُجب عن عين القارئ وذهنه لأنه شُغل بالخلاف حول التصوف ونسبته إلى الصوف أو الصُفّة أو الصفاء، أو إلى كلمة ليست في لغة العرب " سوفيا " وهذا لا يجدي للحياة وإن كان يشتغل به الباحثون في زوايا التاريخ، ولو فطن من يقرأ لهذه الحقيقة لعرف

أن هذا التراث اجتهاد قومٍ لإثراء الحياة في جانب من جوانبها، كما أثراها علوم أخرى واجتهادات أقوام آخرين، " وإذن عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد ما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد.

وهؤلاء نُسِبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم (صوفي)، وليس طريقهم مقيدًا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

وجدير بالذكر أن هذا المضمون الذي يمكن أن نفيده لحياتنا كان سمة التصوف الإسلامي بوصفه السني أو الشرعي، وأنه ما جانبه هذا السمت إلا حين انتحل التصوفَ بعض الغلاة أو المنحرفين الذين كانا موضع نقد الصوفية أنفسهم - كما سيجيء إن شاء الله - وكذلك حين غرق التصوف في متاهات الفلسفة، فانتقل في نظريات بعض القوم إلى عبارات ودلالات لا يوافق عليها مسلم ملتزم، وهي كذلك لا تفيد الحياة في التربية أو التغيير؛ إذ هي إلى شطحات الخيال أقرب منها إلى التحقيق في الواقع.

ونحن نقول مع أبي الحسن الندوي: ليس لنا الآن إلا أن نقرر هذه الحقيقة، ونتحرر من القيود والمصطلحات، ومن النزعات والتعصبات، ولا نفرّ من حقيقة دينية، يقررها الشرع ويدعو إليها الكتاب والسنة وتشتد إليها حاجة المجتمع، والفرد لأجل مصطلح مُحدَث أو اسم طارئ دخيل.

**ثانياً: ضرورة القراءة في تجرّدٍ واستقلال فكري:**

ذلك أن الدخول على فكر ما بفكرة سابقة في رأس القارئ يحرمه الموضوعية في الحكم، ويجعله لا يرى فيما يقرأ إلا ما يشهد لفكرته التي في رأسه، ويلجئه هذا المنهج إلى تأويل ما يراه على غير ما يهوى إلى ما يؤيد فكرته، حتى ولو خالف أظهر قواعد التفكير ومناهج البحث، فالذي يقرأ فكر المعتزلة وفي رأسه حكم الفقهاء عليهم، ووصف أهل السنة لهم بأنهم المعطّلة في الصفات، تراه لا يلتفت إلى أثرهم في الحياة العقلية، ولا إلى ما عُرف عن شيوخهم من عبادة وصلاح، الأمر الذي يتناقض مع ما أشيع عنهم أنهم معطلة يعبدون عدمًا، بل ولا يلتفت إلى جهودهم في مناظرة اليهود والنصارى ودفاعهم عن الإسلام ضد المارقين.

وقد كان الأمر كذلك في قراءة البعض للتصوف الإسلامي؛ حيث قرءوه لإدانته أولاً وقبل كل شيء؛ ولذلك وقعوا في فجاجة لا يقبلها منطق، ولا يقرها المحققون من العلماء.

ونشير إلى أمثلة وقعت في التعميم وربما التناقض نتيجة للقراءة من موقف محدد سلفاً، فابن الجوزي " أبو فرج عبد الرحمن - 597 هـ " الفقيه الحنبلي هاجم التصوف في مواطن شتى من كتبه، وكان جماع هجومه في كتابه " تلبيس إبليس "، ولا يعنينا هنا الهجوم أو المدح بقدر ما يعنينا أن ابن الجوزي في مسلكه هذا الذي عمم فيه الحكم على التصوف ورفضه شكلاً ومضمونا، وجرح كل الكتابات التي كُتبت من فقهاء صوفية كالجنيد أو المحاسبي أو المكي أو الغزالي أو المقدسي، وجردهم جميعاً من العلم بالسنة - أقول: هذا المسلك - مع ما فيه من تعميم لا يوافقه عليه أشد الناس سلفية وهو

شيخ الإسلام ابن تيمية - يظهر تناقضاً واضحاً؛ فهو من جهة يذكر أن أوائل الصوفية كانوا يعوّلون على الكتاب والسنة فكيف يجوز التعميم على كل الصوفية كما وضح في كتابه سالف الذكر؟!، وهو من جهة أخرى له كتاب ترجم فيه للعديد من أوائل الصوفية وشيوخهم، وفيه ينقل الكثير من أقوالهم التي تفيد العلم الذي نفاه عنهم في كتابه " تلبيس إبليس "، فضلا عن اتهامهم بكثير من التهم، فكيف يُقبل هذا؟

وهو من جهة ثالثة عرف عنه - من خلال دراسة علمية عنه - أنه راضَ نفسه في مستهل حياته على ممارسة حياة الزهاد والإمعان في التقشف، لكنه سرعان ما عدل عن السير في هذا الطريق، ونسب ما اعتراه من مرض إلى هذا الأسلوب من الحياة.

أعني أنه عرف القوم عن كثب، وكان هذا يقتضي أن يفرّق بين الملتزمين منهم، والذين اندسوا في وسطهم وكانوا مثالا رديئاً ينبغي التحذير منه.

ولقد حاول بعض الباحثين أن يفسروا هذا الموقف بأنه دخول على التصوف بفكرة سابقة وهي أن ابن الجوزي فقيه حنبلي متشدد، وقد رأى التصوف علما مستقلا عن الفقه له سمته الذي يُعْنى فيه بكيفيات وبواطن ظواهر الأحكام الفقهية، وهذه نظرة جديدة من هؤلاء القوم، جعلت ابن الجوزي ينظر إلى التصوف على أنه مخالف للسنة الدقيقة، ونحن لا نرى في الحنبلية والتشدد السبب الحقيقي، بقدر ما نرى أنه يبني نظرته إلى التصوف من خلال فهمه الخاص للسلفية، إذ الحنبلية والتشدد لم يمنعا ابن تيمية ولا ابن القيم

من أن ينصفا من يستحق الإنصاف من شيوخ التصوف.

أما المعاصرون الذين قرءوا التصوف بعيون غير موضوعية فكثيرون من جهة، وأمرهم عجيب من جهة أخرى فهذا أحدهم يسقط رغبته في تجريح التصوف على كتابات بعض العلماء ويؤولها إلى ما يريد هؤلاء لا ما يريد المؤلف؛ فكتاب " مصرع التصوف " الذي نُسب إلى برهان الدين البقاعي (ت 885 هـ) كان أصله كتابين مستقلين: أحدهما في تكفير ابن عربي، والآخر في تكفير ابن الفارض، فجاء عبد الرحمن الوكيل وجمعهما في كتاب واحد سماه " مصرع التصوف " وأضاف إليه من العناوين ما يحقق به هدفه هو، علما بأن البقاعي قد ذكر صراحة تقديره لأوائل الصوفية، بل ولمتأخريهم الذين لم يذهبوا مذهب ابن عربي، ومنهم علاء الدين البخاري (834 هـ). كما ذكر البقاعي أنه لا يبغض التصوف لكنه يبغض من أبغضه الصوفية ومحققو متأخريهم ممن حاد عن الطريق السوية. والغريب أن محقق الكتاب عاب على المؤلف إنصافه وإقراره أن الصوفية فقهاء، فقال معلقا على المؤلف: هذه دعوى كذوب.

ولا عجب فقد قال محقق رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية: " لا يا شيخ الإسلام "، مبينا أن التصوف هو الداء الفتاك بهذه الأمة، وأنه عدو التوحيد، ونقيض الإيمان، وما ذلك إلا لأن المحقق كان يريد ألا يقع ابن تيمية في هذا الإنصاف للمحققين من الصوفية، وكان يريد أن يكون كما يهوى هو، وإلا رد قوله كما سبق.

ومن المعاصرين كذلك نجد من يبدأ تعريفه للتصوف بقوله: " والتعريف الصحيح للتصوف الإسلامي بأحكام وعظية لا ترتبط فيها النتائج بالمقدمات "، ولكن لأن الرجل كتب الكتاب خدمة لفكرة ما في رأسه أو في رأس غيره فقد أداره على محور التعميم والسب دون دليل يمكن أن يقنع أحدا، فضلاً عن أن يفيد منه.

أما عن ضرورة الاستقلال الفكري فذلك لأن المتابع دون وعي مستقل إمّعة يحسن إذا أحسن الناس، ويسيء إذا أساءوا، وهذه صفة من ليس يملك فكراً مستقلاً، ولا يمكن لقارئ بهذه الصفة أن يقدم جديداً، أو يقترح مفيدا وحسبنا أن نشير إلى أن هناك قضايا أثارها المستشرقون بخصوص مصدر التصوف وأخذه من غير الإسلام أصوله، وكانوا في هذا خاضعين لعوامل عديدة، بعضها خاص بما لم يكن تحت أيديهم من تراث للصوفية غير فكرهم بعد هذا، وبعضها خاص بقضية التأثير والتأثر التي كانت رائجة في الدراسات الإنسانية في فترة ما.

وقد تابع بعض العرب والمسلمين آراء المستشرقين دون نقد أو تمحيص فقالوا بعدم إسلامية التصوف؛ جرياً وراء غيرهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتأصيل ولو علموا أن بعض المستشرقين رجع عن رأيه في قضية " أجنبية مصادر التصوف " بعد أن توافرت له بعض النصوص الصوفية، ولو قرءوا دراسات المدققين من علماء العصر الذين ذكروا خصائص للتصوف الناضج في كل دين، تبعد قضية التأثير والتأثر عن مكانها الذي كانت قد تسنمته في الدراسات الإنسانية - أقول لو قرءوا هذه البحوث الدقيقة لما قبلوا متابعة غيرهم ولحرصوا على استقلالهم الفكري.

وحين يفقد الباحث استقلاله تجده يتابع دون تدقيق، ودون بصر بعواقب ما يقول، بعداً عن المنهجية، أو تضييعاً لتراثٍ له ما له وعليه ما عليه.. يقول أحدهم: " وفي رأي الدكتور زكي مبارك التصوف: مجموعة من الأفكار الإسلامية والنصرانية واليهودية، أو هو الخلاصة الروحية من تلك الديانات الثلاث.. أما التصوف في رأينا فهو طريقة زهدية في التربية النفسية، يعتمد على جملة من العقائد الغيبية (الميتافيزيقية) مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل "، فانظر كيف جرّ عدم الاستقلال البعضَ إلى أن يقول ما يناقض حقائق ومسلمات في مجال البحث في التراث الصوفي.

**ثالثاً: التفرقة بين أقوال الصوفية وروايات المؤرّخين عنهم:**

ما دام القارئ يتغيا الحكم على التراث الصوفي، بغية الإفادة من الناضج الملتزم منه فإن أمانة العلم تلزمه أن يفرق بين أقوال الصوفية موثّقة النسبة إليهم، وفهم مؤرخي الفكر وكُتّاب الطبقات لأقوال الصوفية وأفعالهم، ذلك أنه إضافة إلى ما يغلب على كتب الطبقات من بعض المبالغات فإنها تُكتب غالباً في وقت متأخر عن حياة المؤرخ لهم، وليس بالضرورة أن يدقق المؤرخ في كل رجال سند الرواية التي ينسبها إلى هذا الشخص أو ذاك وربما استنبط من روايات لم تخضع لقواعد الجرح والتعديل معاني هو فيها مجتهد ويبتغي بها الخير، وإن جاءت حقيقتها - بعد الدرس والتفنيد - على خلاف مما قصد إليه باجتهاده.

فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة بعض المؤرخين في إضفاء صفات معينة على العَلَم أو الشخص الذي يؤرّخون له لسبب مذهبي، أو لميل طائفي، كان لنا أن نؤكد ضرورة التفرقة بين أقوال الصوفية أنفسهم

ونظرة المؤرخين لهم وللتصوف، باعتبارها ضرورة منهجية للحكم والاستنباط.

ولا ينفرد التصوف بهذه المسألة فيا روي عنه وعن أهله، بل هي سمة عامة في عموم الروايات وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء والأذواق، من الفقهاء والزهاد والمتكلمين وغيرهم، يوجد فيما يأثرونه عمن قبلهم، وفيما يذكرون معتقدين له شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى، ودين الحق الذي بعث الله به رسوله. ويوجد أحياناً عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير.

وها نحن أولاء نذكر بعض الأمثلة التي ذكرها مؤرخو التصوف، وهي عند التحقيق تؤدي إلى غير ما قصدوا إليه، أو لا تدل على ما استنبطوه؛ الأمر الذي جعل بعض العلماء يفندها ويرد عليها.

### أ – مسألة الصُفّة وربط التصوف بصفات أهلها:

يقول - صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف -: وقال قوم إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُفّة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

ولو كان الأمر مجرد رواية عن قوم قالوا هذا في نسبة التصوف لهان الأمر، لكننا نجد السراج الطوسي يصف أهل الصفة بأنهم مقيمون في المسجد، وأنهم لم يؤمروا بطلب المعاش من المكاسب والتجارات. ويصف حب رسول الله لهم، وارتباطه بهم، ويذكر أن

الصوفية وجدوا فيهم الاقتداء والاهتداء، ويذكر أن عددهم كان نيّفًا وثلاثمائة.

أما أبو طالب المكي فيجعل منهم رباطًا، ولهم رئيس هو أبو هريرة يأمرهم فيأتمرون، ويصفهم بأنهم كانوا أشد الناس زهدًا وقريب من هذه الأوصاف وصف أبي نعيم لهم.

وقد فهم أحد الباحثين من هذا تمهيد المكي للربط بين صِفة أهل الصُفّة هذه وبين الرباط عند الصوفية، وربما يوطئ بذلك لحاجة المريد إلى شيخ ينزل المريد عند أمره ونهيه.

وقد تابع هؤلاء المؤرخون في فكرتهم ربط الصوفية بأهل الصفة، وجعلها بذرة التصوف الأولى بعض كبار الباحثين ونحن لا نجد بذور هذه الحياة الروحية مغروسة في قلب النبي ﷺ وقلوب صحابته من الخلفاء الأربعة فحسب، وإنما نحن واجدوها أيضًا حية نامية في قلوب كثير من الصحابة غير الخلفاء، ويكفي أن نذكر هنا أهل الصفة، وما كان لهم من أثر قوي في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية عامة، وفي تاريخ التصوف الإسلامي خاصة.

وإذا كنا نتفق مع هؤلاء المؤرخين في صلاح مجموع أهل الصفة، فلا نوافقهم على إقامتهم الدائمة في المسجد ولا على عدم شغلهم وكسبهم في كل الحالات، ولا نوافق كذلك على أن العدد كان ثابتًا، بل إنه كان يزيد وينقص حسب ظروف القادمين من مكة والذين لا يجدون مأوى لهم غير المسجد، فقد كانوا يزيدون فيكونون ستين أو أكثر ويقلون حتى يكون عددهم عشرة.. " فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي ﷺ إلى المدينة، فمن أمكنه أن ينزل في

مكان نزل به. ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه.

بل إن ابن تيمية يرى أن من كان ينزل بالصفة هم من جنس سائر المسلمين ليس لهم مزية في علم ولا دين، " بل فيهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبي ﷺ كالعرنيين الذين اجتووا المدينة، وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس، وفيه أنهم نزلوا الصفة، فكان ينزلها مثل هؤلاء، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص، وهو أفضل من نزل بالصفة ثم انتقل عنها، ونزلها أبو هريرة وغيره.. وقد روي أنه كان غلام للمغيرة بن شعبة وأن النبي ﷺ قال: أهذا واحد من (السبعة)، وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم: وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية.

ولم يؤثر للصوفية الأوائل - فيما قرأت - أقوال ينسبون فيها أنفسهم إلى الصفة، وبعيدًا عن عدم موافقة النسبة لقواعد اللغة العربية في النسب، فإن ما حكاه المؤرخون في مسألة الصفة وربط التصوف بها باعتبار أنها أول بذوره، صاحبه كثير من البُعد عن حقائق تاريخية تتصل بالمسألة ذاتها، وإننا نظلم الصوفية إن حكمنا عليهم وفق هذه الروايات وأمثالها.

ب - وقريب من المثال السابق ما حكاه المؤرخون مما يفيد أن بداية التصوف كانت على يد على بن الحسين زين العابدين (توفى بالبقيع 99هـ) فالكلاباذي يقول تحت باب عقده بعنوان: " في رجال الصوفية " من نطق بعلومهم، وعبّر عن مواجيدهم، ونشر مقاماتهم، ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً بعد الصحابة رضوان الله عليهم على بن

الحسين زين العابدين، وابنه محمد بن على الباقر، وابنه جعفر بن محمد الصادق.

كذلك ربط بعض المتأخرين بين الحسن البصري وعلي بن أبي طالب في علمه الذي ورثه عنه والموروث من النبي ﷺ وراثة لا كسبًا، بل إن البعض جعل مستندهم في الخرقة الصوفية أن عليًا ألبسها الحسن البصري، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، واتصل ذلك منهم حتى الجنيد من شيوخهم، ولا يعلم هذا عن على من وجه صحيح.

ولعل هذه الأمثلة وما تفيده من توجيه لتاريخ التصوف وجهة معينة لسبب أو لآخر هي التي جعلتنا نؤكد الحاجة إلى التفرقة المنهجية التي أشرنا إليها، ونفهم في ضوء هذا موقف ابن تيمية من أمثال هذه الروايات، فقد نقل عن القشيري قوله في اعتقاد الصوفية وأنهم أشاعرة في مجمل اعتقادهم، ثم رد ابن تيمية هذا الفهم من القشيري بالرجوع إلى أقوال المشايخ أنفسهم ليثبت أنهم كانوا على اعتقاد السلف فصل فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية، فإنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يستدل به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني..، والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهو الذي كان يجب أن يُذكر، فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، ومعروف الكرخي إلى الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد

الله التستري، وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ.

ويورد ابن تيمية أقوالهم موثقة النسبة إليهم ليصل إلى أن الصوفية سلفيون في العقائد بعامة، وأن المعرفة عندهم تخالف المصطلح الكلامي، والإيمان عندهم قول وعمل، وكذلك كان موقف ابن تيمية حين روى القشيري عن أبي سليمان الداراني قوله في الرضا قال أبو سليمان الداراني: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار. فقد شكك ابن تيمية في صحة هذه النسبة إلى أبي سليمان، معتقدًا على أمثلة ذكرها القشيري في رسالته وسندها فيه كلام، ومستندًا كذلك إلى الكتب التي اهتمت بجمع أقوال الصوفية مثل حلية الأولياء لأبي نعيم وطبقات السلمي، وصفة الصفوة لابن الجوزي وغيرها لم تذكر هذه الكلمة لأبي سليمان. ويذكر أنه من المحتمل أن تكون هذه الكلمة نُقلت بالمعنى عن قول آخر، إذ ثبت لأبي سليمان أنه قال: لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيًا، فيشبه أن يكون بعض الناس حكى ما فهم بالمعنى فذكر الكلمة التي هي موضع الحديث.

ويؤكد ابن تيمية استبعاد صدور هذا القول من أبي سليمان " فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن أتبعهم للشريعة حتى إنه كان يقول: إنه ليمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين من الكتاب والسنة، فمن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين يقول مثل هذا الكلام؟

فلو أخذ ابن تيمية برواية القشيري مع - تقديره له - لكان اتهامه لأبي سليمان الداراني أسبق من إنصافه ولا نسد الطريق على الإفادة

من أقواله - أو إشاراته أو أخلاقه.

**رابعًا: ضرورة تحديد المصطلحات المتصلة بالتصوف الإسلامي:**

فما دامت القراءة للحكم والاستنباط والتوظيف تستهدف عدم الوقوع في أخطاء التعميم أو التسرع في الأحكام فإن من الضروري حينئذ أن يهتم قارئ التراث الصوفي الإسلامي بالتحديد الدقيق للمصطلح المراد نقده والإفادة منه، وهذا يشمل الألفاظ التي استخدمها الصوفية وحددوا مرادهم منها بما يتفق مع أصول دينهم، لكن التعميم والأخذ بالفهم الشائع لأدنى ملابسة أدى بأصحابه إلى خطأ في الحكم، فضلا عن عدم تقدير دقيق وعدم إفادة من هذا التراث.

كما يشمل التحديد المراد الأوصاف التي عُرفت بها مراحل التصوف الإسلامي واتجاهاته متمثلة في مراحله التاريخية، وخصائص كل مرحلة، وظاهرة على رجال كل مرحلة كذلك، وقد أدى الخلط في هذا الباب إلى نتائج تعوزها الدقة المنهجية في كثير من الأحيان، ولنأخذ بعض الأمثلة في كلا الجانبين: الألفاظ - الأوصاف.

أ - ففي باب الألفاظ نذكر مثلا:

الزهد - التوكل - الاتحاد - الفناء.

هذه ألفاظ دار حولها حديث طويل من حيث دلالتها وصلة هذه الدلالة بالفهم للإسلام، وبخاصة أن البعض ربط بين كلمات الصوفية في الزهد ودعوات بعضهم - مثل شقيق البلخي مثلاً - للقعود عن الكسب، كما ربط البعض بين التوكل والدعوى ذاتها، حتى إن ابن

الجوزي اتهمهم بعدم الفهم ومجافاة ما يحب أن يكون، حيث تنكبوا الطريق الشرعي للحياة، فالتوكل عمل قلبي وثقة بالله لا تركٌ للعمل، ولا تعطيل للجوارح، ويستشهد بأن النبي ﷺ تاجر حتى كُفِي العمل من الفيء.

وإن كنا نجد نيكلسون يقرر أن الصوفية بعد شقيق البلخي كانوا لا يرون الكسب منافيًا للتوكل.

ولو رجعنا إلى أقوال الصوفية في الزهد وفي الكسب وفي التوكل وحددنا دلالة هذه الألفاظ عندهم وعرفنا موقفهم من العمل، ورفضهم لأصحاب دعوى القعود عن الكسب، لو رجعنا إلى أقوالهم لتحدد لنا رأيهم بدقة في هذه المفاهيم، ولكان لنا أن نحكم على مدى قرب منهجهم أو بعده عن دعوة الإسلام، ولتجنبنا الخلط الذي وقع فيه البعض حين فهم الزهد بمعنى خاص من بعض عبارات القوم، ثم عممه على الجميع، بل قرر أن الإسلام لا يفسح المجال لهذا الزهد.

ولست أريد هنا أن أفصّل القول في هذه المسألة، وحسبي أن أشير إلى عبارتين إحداهما للمحاسبي والأخرى لأبي طالب المكي، وهما نموذجان لكثير من القول يماثلهما عند الصوفية، ولهما دلالتهما في مسألة الزهد ومسألة التوكل.

يقول الحارث المحاسبي: " ولرب مكنز للأموال بغير الإكثار مشغول، ليس بذاكر دنياه؛ لأن الآخرة غلبت على مناه، تذكّره للدنيا تذكر من أراد فيها البلاغ، وحبه لها حب من لا يغيره تقلّب الأحوال، قلبه لغيرها ذاكر وهو على ما أعطاه الله منها شاكر، إن أعطي منها

لم يمنعه حلول النعمة عن أداء شركها، وأن مُنع لم يمنعه نزول البلية عن النظر إلى مواضع الخير، ولرب مقلّ قد ظهر الزهد على ظاهره وبدنه وقلبه مشغولٌ بالرغبة؛ فقد استقلّ كل ما صار إليه من الدنيا وإن كان في العدد كثيرًا، ويستكثر ما بيد غيره وإن كان في العدد قليلاً.

ويقول المكي: " ولا يضر التصرف والكسب لمن صح توكله، ولا يقدح في مقامه من حاله، قال الله تعالى:{وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾} [النبأ: ١١] و{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [الأعراف: ١٠] وروي عن النبي ﷺ:﴿**أحلّ ما أكل العبد من كسب يده، وكل بيع مبرور**﴾.

فمن أدرك دلالة الزهد والتوكل عند الصوفية كان له أن يقرهم على فهمهم الذي هو صدى لما أُثر عن الرسول ﷺ في هذا الصدد، وكان له كذلك أن يناقش البعض في قضية التوكل بين العامة والخاصة. وهذا طريق الحكم الحق والتوظيف الجيد للتراث. أما من لم يعنّ نفسه بالتحقيق في مراد القوم فقد سهل عليه أن يكيل لهم الاتهامات لموقفهم من الزهد والعمل والمال ونحو هذا، وحسب أنه بذلك قدّم للبشرية خيرًا.

وبالمقياس ذاته نقول: إن الصوفية في كلامهم عن الحب الإلهي، وهو نزع نصوص قرآنية وحديثية، عبروا عن أشواقهم بلغة جعلت البعض ينفر، ويتهمهم منذ فترة مبكرة - أي قبل التصوف الفلسفي - أنهم يقولون بالاتحاد، مع أن حقيقة ما دعوا إليه وما تغنوا به هو صدى للحديث الصحيح: " لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به،

ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي.

وقد فطن ابن تيمية إلى الفرق بين هذا الاتحاد، والاتحاد الذي قال به البعض في مرحلة تفلسف التصوف وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به، والمبغض المكروه المنهي عنه، وقد يقال له اتحاد نوعي وصفي، وليس ذلك اتحاد الذاتين فإن ذلك محال ممتنع، والقائل به كافر، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم.. وأما الاتحاد المطلق الذي هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، فهذا تعطيل للصانع وجحود له، وهو جامع لكل شرّ.

وأما الفناء وهو عند الصوفية لازم المحبة حين تشتد وتسيطر، فإن هذا اللفظ كم جرّ المتعجلين في الحكم إلى تشنيع على كل الصوفية، وتنديد باللفظ في كل دلالاته، وهذا ولا شك يتناقض مع الدقة والمنهج.

ولكن تفحص أقوال الصوفية أدى بعالم محافظ كابن تيمية أن يقرر الفناء الذي يوجد في كلام الصوفية يُفسّر بثلاثة أمور: أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته، وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص.

الأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة، ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه.

ويرى ابن تيمية أن هذا النوع فيه نقص، وأن شهود الحقائق أكمل، لكنه يقرّ أن البعض قد تغلبه المحبة فيسكر ويسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، فيقول أقوالاً ظاهرها يخالف الشرع، ويرى أن الحكم عليه يكون ببحث سبب السكر فإن كان السبب حلالاً كالمحبة وشدة الذكر لم يؤاخذ بما قال، ونُبّه إلى عدم اتباع طريقته أو أقواله.

وهذان النوعان عند ابن تيمية مقبولان وعن النوع الثاني يقول: " وعامة ما نجده في كتب أصحاب الصوفية مثل شيخ الإسلام (يقصد الهروي الأنصاري) أن من قبله من الفناء هو هذا.. وفي الجملة فهذا الفناء صحيح.

لكن هذا لم يمنع ابن تيمية من أن ينكر النوع الثالث وهو الفناء عن وجود السوى الذي يرى أن الله هو الوجود وأنه لا وجود سواه، وأنه عن الموجودات؛ لأنه يخالف الشرع، وما به قال المحققون من مشايخ الصوفية.

ب - وفي باب أوصاف التصوف تذكر أن هناك التصوف السني، والتصوف الفلسفي.

وهذا التحديد مهمّ لأننا إذا كنا نقرأ التصوف السني فنحن نقيمه ونفيد منه في ضوء خصائصه التي استخلصها من نصوصه المحققون من العلماء، وننظر إلى رجاله في ضوء ارتباطهم بالمصادر الإسلامية، وعدم تأثرهم بالفلسفة والأثر الأجنبي بعامة، وإذا وجد لدى بعضهم بعض الأثر الأجنبي كالحلاج عند البعض، والبسطامي عند البعض.

فإن هذا لا يمثل ظاهرة في التصوف السني وبخاصة في مراحله الأولى (القرنين الثالث والرابع الهجريين) الأمر الذي جعل البعض يعتذر عن الحلاج، ويوضح أن الحلول عنده لم يكن حقيقيًّا وأنه كان مجازيًّا، ومستندًا في ذلك إلى عبارة نقلها السلمي عنه (ما انفصلت البشرية عنه، ولا اتصلت به) " وهذا قد يعني عنده أن الإنسان الذي خلقه الله على صورته هو موضع التجلي، فهو متصل بالله غير منفصل عنه بهذا المعنى، ولكن تجلي الله للعبد أو ظهوره من حيث صورته فيه ليس يعني اتصالاً بالبشرية حقيقيًّا.

وقد فسرت أقوال الحلاج والبسطامي تفسيرًا نفسيًّا من حيث غلبة الوجد، وفرط المحبة الأمر الذي أشار إليه ابن تيمية في حديثه عن الفناء كما سبق أن أشرنا.

أما إذا كنا نقرأ في التصوف الفلسفي حيث النظريات التي يصعب تأويلها أو الاعتذار عنها لتتفق مع الإسلام فإن الأمر يختلف تمامًا، فنحن هنا لا نقرأ تصوفًا جل اهتمامه بالأخلاق والتربية " السابق "، بل نقرأ فكرًا روحيًّا أُشْرِب مضامين الفلسفة، وهنا سنلتقي بالنظريات التي هي موضع الرفض لدى مجموع العلماء والدارسين مثل الاتحاد ووحدة الوجود؛ الأمر الذي جعل من الصعب أن تسمي هذا النوع تصوفًا خالصًا أو فلسفة خالصة وعلينا أن ندرك - ونحن نقرأ هذا النوع من التصوف - أنه وإن اشترك مع التصوف في اسمه وبعض خصائصه إلا أن أولئك المتفلسفة زادوا على المتصوفة السنيين بأمور: أولها: أنهم أصحاب نظريات أو مواقف من الوجود، بسطوها في كتبهم أو أشعارهم، ولا يمكن أن توصف عبارتهم فيها بأنها من قبيل الشطَح الذي لا يسأل عنه أصحابه، وثانيها: أنهم

أسرفوا في الرمزية إسرافًا إلى حد بدا معه كلامهم غير مفهوم للغير، وثالثها اعتدادهم الشديد بعلومهم وأنفسهم وهو اعتداد إن لم يلازمهم كلهم، فقد لازم أكثرهم على الأقل.

والذين لم يفرقوا بين أنواع التصوف وقعوا في خلط شديد، فهم يرفضون الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وهي من التصوف الفلسفي من جهة، وموضوع نقد مؤرخي التصوف وشيوخه من جهة أخرى، لكنهم يسحبون ما يرفضونه من التصوف الفلسفي على كل التصوف ولا يفرقون بين رجال وشيوخ هذه المرحلة أو تلك.

أما الذين فرقوا بين تصوف استمد مصدره من الكتاب والسنة وإن صاحبته بعض الاجتهادات وظروف التاريخ وتصوف غلبت عليه الفلسفة ونظريات تفسير الوجود، فهؤلاء فرقوا بين المشايخ وفق ما عُلم عنهم من ضبط والتزام، فكان قبول ابن تيمية لحديث الجنيد عن التوحيد، ورفضه تأويل ابن عربي في الموضوع ذاته.

وكانت كثرة نقول الشيخ عن الجيلاني واستشهاده بأقواله في مواضع مختلفة من كتبه، وكان كذلك توضيحه لموقف شيوخ الصوفية الأوائل من قضايا العقيدة، والسماع ونحو ذلك بما ينصف المحسن، ويحذر من غيره.

وليس معنى التحديد أننا نقبل نوعًا ما جملة، أو نرفض نوعًا آخر من التصوف جملة، فهذا مرتبط بالدراسة وتحليل النصوص، لكننا نعني بالتحديد أنه يساعدنا أن نعلم ماذا نقرأ؟ ولماذا نقرأ؟ ويبعدنا عن المدح أو القدح دون أسباب أو أدلة كافية لأي منهما.

ولا شك أن الوعي بالمراحل التاريخية التي مر بها التصوف الإسلامي له أثره في طبيعة التقويم والحكم، وفي كيفية الاستفادة من إيجابيات مرحلة ما، أو تجنب سلبيات مرحلة ما، فالتصوف الإسلامي في مرحلة تحديد المصطلح وثباته علمًا بين العلوم وثيق الصلة بمصادر العلم والحياة الإسلامية، يختلف عنه في مرحلة كونها أصبح طرقًا ومؤسسات اجتماعية، على أن الاختلاف لا يعني انبتات الصلة بين مرحلة وأخرى، ولكن يعني أن كل مرحلة لها خصائصها وتوجهاتها وتراثها الذي يبرز هذه السمات، والتي تمكننا من التقييم والإفادة.

والشيء نفسه نجده حين نقرأ التصوف الإسلامي في طرقه المعاصرة في ظروف استعمار بعض البلاد، وتدني مستوى التعليم والفهم الإسلاميين وهو ما يحبذ ضرورة العناية بالناحية الاجتماعية أكثر من أي وقت مضى.

والقراءة وفق هذه التحديدات وأمثالها تفسر كثيرًا من المسائل التي دار حديث حولها، فقد يتضح أن الخلاف لفظي بين المادحين للتصوف والقادحين فيه لأن المادحين يمدحون نوعًا ومرحلة من التصوف، والقادحين يقدحون في نوع آخر غير النوع والمرحلة السابقة، وبخاصة إذا عرفنا أن النوع الذي ذمّه القادحون ذمّه الصوفية أنفسهم وسجل هذا مؤرخوهم كما فعل القشيري في رسالته، وكما فعل الهروي الأنصاري في منازل السائرين وكما فعل الغزالي

في المقصد الأسنى، وإن كان هذا لم يمنع الغزالي من الاعتذار عن بعض أقوال الصوفية التي يمكن توجيهها من خلال الظروف النفسية للحالة التي كانوا هم عليها، من حالات الوجد كما فعل في مشكاة الأنوار.

كذلك يفسر لنا هذا الوعي ثقة العلماء المحافظين في بعض شيوخ الصوفية ويسمونهم بالمحققين كما فعل ابن تيمية وابن القيم مع الجيلاني وقبله الجنيد والسقطي ومن على شاكلتهم، في الوقت الذي يتعقب فيه أمثال الحلاج وابن عربي والتلمساني وغيرهم، وما ذاك إلا لأن الشيوخ الموثوق فيهم أبناء مرحلة وأصحاب ذكر يختلف عن غيرهم من أصحاب النظريات المتأثرة بالأثر الأجنبي أيًّا كان مصدره.

كما يفيد هذا الوعي بالمراحل والسمات في محاولة إصلاح ما قد يكون من انحراف في بعض طرق التصوف المعاصر، وبخاصة إذا علمنا كثرة أتباعها من العامة والبسطاء ومدى تأثيرها فيهم، وذلك من خلال ما التزم به التصوف السني في مجالسه الأولى وطرقه المنظمة في القرن السادس الهجري وما بعده، وكيف حرص شيوخه على الالتزام بالشرع في فكرهم، وممارساتهم الروحية، وحركتهم الاجتماعية وحرصهم على تنقية صفوفهم من الأدعياء والمغالطين.

وبالطبع لا نستطيع أن نتلمس هذا الإصلاح في التصوف الفلسفي لأنه هو ذاته جزء من مشكلة البعد عن الحياة الإسلامية النقية، فضلاً عن أثره بشكل أو بآخر في بعض هذه الطرق الغالية في العصر الحديث، ونحن نريد أن ننهض بالجانب الروحي للإنسان المعاصر

وفق منهاج الإسلام في تنمية هذا الجانب، كما كان في حياة الرسول ﷺ وأصحابه، وكما اجتهد محققو الصوفية في فهمه ومحاكاته.

**خامسًا: مراعاة طبيعة التصوف كتجربة ذوقية:**

التصوف تجربة ذوقية وجدت في سائر الأديان السماوية والوضعية، وعبَّر عنها كل صوفي في إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار، وقد درسها العلماء وحاولوا التماس خصائص تميزها عن غيرها من التجارب وتنطبق على كل أنواع التصوف الناضج، وهي:

- الترقي الأخلاقي.
- الفناء في الحقيقة المطلقة.
- العرفان الذوقي المباشر.
- الطمأنينة والسعادة.
- الرمزية في التعبير.

ووفق هذا عُرف التصوف بأنه فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس الإنسانية أخلاقيًّا، وتتحقق بواسطته رياضيات عملية معنية تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقًا لا عقلاً، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية؛ لأنها وجدانية الطباع ذاتية.

ويتضح من هذا أن التصوف تجربة ذوقية خاصة ليس للعقل مدخل فيها؛ ولذا لا يقبل أصحابها الحكم عليها بالفلسفة والعقل، فإنه يحق للصوفية أن يعترضوا على كل من يحاول أن يَزِن تجاربهم

وتعبيراتهم بميزان العقل؛ لأن العقل وقوانينه مشترك بين الناس جميعًا، أما التجارب الصوفية فلا تخص غيرهم.

وفي التصوف الإسلامي نرى ذوقية علومه واعتبار ذلك حتى لدى رؤوس التصوف الفلسفي، ومن ذلك ما يروى أن تلميذًا لابن عربي قال له: إن الناس ينكرون علينا علومنا، ويطالبوننا بالدليل عليها، فقال ابن عربي ناصحًا: إذا طالبك أحد بالدليل والبرهان على علوم الأسرار الإلهية فقل له: ما الدليل على حلاوة العسل؟ فلا بد أن يقول لك: هذا علم لا يحصل إلا بالذوق، فقل له: هذا مثل ذلك.

وإذا كانت هذه الرواية تظهر اعتبار الذوق في علوم متفلسفة الصوفية، فإن بعض الباحثين يرى أن أصحاب التصوف الفلسفي لا يستطيعون أن يدعوا أنهم توصلوا إلى نظرياتهم في الوجود عن طريق الذوق، وليست نظرياتهم هذه نتيجة إلهامات وفيوضات إلهية لأن بعضهم قد اعترف أنه أخذها من حكمة زرادشت وفلسفة أفلاطون، الأمر الذي يجعل هذه النظريات بالمعيار الصوفي غريبة على التصوف الإسلامي إن لم تكن مسخًا له.

لكن الذي يبقى موضع اتفاق هو أن التصوف تجربة ذوقية خاصة يعبر كل صوفي عنها بوسيلته وطريقته، وقد تختلف من صوفي إلى آخر نتيجة درجته في التجربة ذاتها.

وكذلك يبقى أن الحكم على هذه التجربة لا يكون بالفلسفة العقلية ولا يكون بتجاهل خصائصها والتركيز على بعض الجوانب دون الأخرى؛ لأن ذلك لا ينصف التصوف، وذلك كما فعل بعض علماء النفس حين درسوا التجربة الصوفية ضمن مسائل علم النفس الديني،

لأنهم ركزوا على الجانب الحسي في التجربة، ولم يدققوا في المصطلحات التي تحمل شحنة وجدانية خاصة، بل وأكثر من ذلك - كما يذكر الدكتور التفتازاني - نظروا إلى بعض حالات التصوف على أنها حالات مرضية عقلية ناسين أو متناسين طبيعة التجربة المحكوم عليها، والتي لا يمكن الحكم عليها حكمًا سليمًا إلا ممن ذاق أو عنده استعداد للتذوق وتأمل حالات موجودة بالفعل وناطقة بطبيعة التجربة الذوقية التي نحن بصدد الحكم عليها.

لو نظر إلى التصوف في ضوء طبيعته التي أشرنا إليها فإن مسألة غموض التعبيرات الصوفية سوف يعرف سببها، ومسألة اختلاف التعبيرات للصوفي الواحد سوف يدرك سرها كذلك، وسوف ندرك لماذا اعتدل البعض في حكمهم على التصوف وذلك حين فهموا طبيعته واعترفوا بها ولماذا لم يدرك البعض هذا الحظ من الإنصاف، وذلك لأنهم قاسوا التصوف كعلم على سائر العلوم في عصره مع أن هذا المقياس ذاته غير دقيق لأن علوم العصر تختلف بحسب موضوعاتها وتختار لذلك وسائلها وتعين لغة التعبير فيها.

فلكي نصيب في الحكم على التصوف، ونستطيع الإفادة من جوانب الثراء فيه ينبغي أن نراعي هذا الأمر ونحن نقرأ تراثنا الصوفي، ويبقى بعد ذلك أن نخطئ أو أن نصيب لكن كل ذلك في دائرة الاجتهاد الأمين الذي يمنح صاحبه أجرًا إن أخطأ وأجرين إن أصاب. والله المستعان.

## سادسًا: الحكم على الصوفية في ضوء أحوالهم:

الصوفية من خلال طبيعة تجربتهم أصحاب أحوال ومواجيد، ولكنهم كذلك حين يخرجون من هذه الأحوال يصبحون أصحاب صحو وفكر، شأنهم في ذلك شأن بقية الناس، والحكم على الصوفية - وهم في أحوالهم - يختلف عنه في حالات صحوهم، أو هكذا ينبغي أن يكون، وعدم الأخذ بهذه التفرقة أدى بالناس إلى تطرف في الحكم عليهم، فالبعض حين رأى من أحوالهم ما يخالف ظاهر الشرع حكم عليهم بالكفر والفسوق والعصيان جملة ودون تفصيل، وهناك من رأى أن ما عليه هؤلاء في أحوالهم هذه أمور سائغة وطيبة، ويمتدحونه بمبالغة كذلك.

وقد يغلو كل واحد من هذين حتى يخرج بالأول إنكاره إلى التكفير والتفسيق في مواطن الاجتهاد، متبعًا لظاهر من أدلة الشريعة. ويخرج بالثاني إقراره إلى الإقرار بما يخالف دين الإسلام مما يعلم بالاضطرار أن الرسول جاء بخلافه اتباعًا في زعمه لما يشبه قصة موسى والخضر، والأول كثيرًا ما يقع في ذوي العلم لكن مقرونًا بقسوة وهوى. والثاني كثيرًا ما يقع في ذوي الرحمة لكن مقرونًا بضلالة وجهل، والعدل في هذا الباب قولاً وفعلاً أن تسليم الحال له معنيان.

أحدهما: رفع اللوم عنه بحيث لا يكون مذمومًا ولا مؤثمًا. والثاني: تصويبه على ما فعل بحيث يكون محمودًا مأجورًا، فالأول عدم الذم والعقاب، والثاني وجود الحمد والثواب، الأول عدم سخط الله وعقابه، والثاني وجود رضاه وثوابه؛ ولهذا نجد المنكرين غالبًا في إثبات السخط والذم والعقاب، والمقرين في إثبات الرضا والحمد

والثواب، وكلاهما قد يكون مخطئًا، ويكون الصواب في أمر ثالث وسط، وهو أنه لا حمد ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب.

ويذكر ابن تيمية أنه وإن أنكر بعض التابعين على أصحاب الأحوال أمرهم فإن تحقيق الأمر يقضي بالإنصاف بأن يبحث سبب زوال العقل فإن كان بسبب غير محرم، وكان سكره نتيجة حالة من الحب والوجد والوله استغرقته فأسكرت عقله، كان في حاله هذه معذورًا، وله من التاريخ شاهد على ذلك، ومن رأى جمهور العلماء أعذاراً له والذي عليه جمهور العلماء أن الواجد من هؤلاء إذا كان مغلوبًا على أمره لم ينكر عليه، وإن كان حال الثالث أكمل منه؛ ولهذا لما سُئل الإمام عن هذا قال: قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان، فغشي عليه ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد، فما رأيت أعقل منه.

ورسم هذا المنهج للحكم على الصوفية في أحوالهم ومواجيدهم من عالم كابن تيمية أمر له دلالته، فالرجل ليس من الصوفية، ولا من مؤرخيهم، ولكنه منصف ومقدر؛ لأن هؤلاء الصوفية في نظره مجتهدون في العبادات، كما اجتهد جيرانهم في الفقه والقضاء والإمارة، وهم في نظره أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده خشية لله أو حب له؛ إذ من المقرر أن الصوفية إنما أوردهم هذه الأحوال حب ومجاهدة ودوام ذكر أدى ببعضهم إلى سكر قال فيه وهو في غياب عقل - ما يستشنع ظاهره شرعًا، لذا فهو يرى عذرهم ما داموا ليسوا متكلفين ذلك، وما دام المعروف عنهم تمسكهم بالشرع في حال صحوهم وجماع تاريخهم، بل إن ابن تيمية يقول: إذا شك الإنسان في حال أحدهم هل هو سكر طبيعي ومتكلف كان عليه أن يتوقف في

الحكم فلأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة، شريطة أن ينبه أن هذا الذي وقع لا يقتدى به إذ هو مخالف للشرع، وإن كان لصاحبه عذره.

## حالات الصحو واليقظة:

أما الحكم على الصوفية في حال يقظتهم فيكون من منطلق أنهم بشر يخطئون ويصيبون، وأنه لا عصمة لأحد من البشر غير الأنبياء، وأشد الناس استحقاقًا لوصف الولاية يجوز عليهم الخطأ لا بل يجوز أن يخفى عليه علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى.

وعليه فإن الحكم على أقوالهم وأفعالهم يكون بعرضها على الكتاب والسنة فما وافق كان جديرًا بالتقدير والاقتداء وما كان غير ذلك فيوصف بما وصفه الشرع به من خطأ أو ضلال أو نحو ذلك.

وقد كان الصوفية حريصين على جعل الكتاب والسنة مقياسًا يحكم به على أقدار الرجال ومدى التزامهم، بل جعل هذا المقياس هو الفيصل في قبول هذه الفئة لشخص ما أو رفضها له " وهذا كثير من كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة وقال الجنيد رحمه الله: علمنا هذا مقيد بالكتب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم عن علمنا أو قال: لا يقتدى به.

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم:{وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ} [النور: ٥٤]، وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وقد أورد أبو الفرج بن الجوزي أقوالاً كثيرة للشيوخ في هذا المعنى، ولم يشذ عن ذلك بعض من اتهموا بالشطح فهذا أبو يزيد البسطامي يقول: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود.

ويقول: من ترك قراءة القرآن والتقشف ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع.

وهو نفس المعنى الذي يحكيه عن أبي الحسين النوري في قوله: من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه في دينه.

وهذا هو الموافق للعقل إذ لا يقبل ممن يسندون مقاماتهم وأحوالهم إلى الكتاب والسنة أن يرضوا في صفوفهم بمن ينقض هذا الأصل، أو يقدس وليًّا فيرفعه فوق مستوى الخطأ قابلاً منه كل ما جاء به، ملتمسًا للغريب من أقواله وأفعاله مسالك التأويل وطرق التسويغ، لا يعقل أن يقبل هذا من قوم أتباع رسول الله ﷺ في صفة طريقهم، ومصدر مجاهداتهم.

والذي يخرج عن هذا الخط الوسط، فيقدس الشيوخ ويصفهم بما ليس في إمكانهم أو من حقهم غالط مقدار تجاوزه للمنهج الشرعي في تقدير الناس والحكم عليهم (نعرف الرجال بالحق لا نعرف الحق بالرجال)،{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ} [الحجرات: ١٣] (كل يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ). وقد وقع الغلط قديمًا وحديثًا؛ نظرًا لتجاوز المنهج الذي ألح على الالتزام به محققو المشايخ من الصوفية المسلمين.

## الفكر الصوفي والتنبيه إلى غلطات بعض الصوفية:

وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار ونحن نقرأ التراث الصوفي حرص مؤرخي التصوف وهم صوفية في غالب الأحيان - على تنقية هذا الطريق من الدخلاء، والأدعياء، والتنبيه إلى أن هؤلاء ينبغي الحذر من اتباعهم فيما غلطوا فيه.

ويمكن أن يقال: إن هذا اللون من النقد - المسمى بالنقد الذاتي - هو مظهر من مظاهر الحب للصفو والحرص على أن يتفادى نفور المجتمع منه، بل الحرص على أن يثبت موقعه في مجتمع عرف تيارات للفكر عديدة، بعضها فقهي، وبعضها كلامي، وما إلى ذلك، قد يقال هذا - وهو حق في مجمله - لأن الذين كتبوا في غلطات الصوفية، هم الذين مدحوا التصوف وأهله بأحسن صفات المدح والتقدير، لكنك مع ذلك لا بد أن تشهد لهؤلاء المادحين الراصدين للأغلاط بنقطة وعي منهجي حيث لم يمنعهم الحب من بيان وجه الخطأ لدى المخطئ، بل وإرجاع أسباب الخطأ إلى جهل بالشرع، ونقص في العلم.

ولعل السراج الطوسي (ت 278 هـ) أبرز من كتب في هذا الباب حيث أفرد مساحة غير قليلة من كتابه اللمع - وقد بين الأسس التي ينبني عليها طريق القوم، والذي لا يبني فهمه وعمله عليها ويدعي أنه من - الصوفية فهو غالط مخدوع، والأسس ثلاثة:

**أولها**: اجتناب جميع المحارم، كبيرها وصغيرها.

**ثانيها**: أداء جميع الفرائض، عسيرها ويسيرها.

**والثالث**: ترك الدنيا على أهل الدنيا قليلها وكثيرها إلا ما لا بد منه للمؤمن منها.

ثم يقول: فكل من وعى حالاً من أحوال أهل الخصوص، أو توهم أنه سلك منازل أهل الصفوة، ولم يبن أساسه على هذه الثلاثة فإنه إلى الغلط أقرب منه إلى الإصابة في جميع ما يشير إليه أو يدعيه أو يترسم برسمه، والعالم مقر، والجاهل مدع.

ويفصل الشيخ القول في طبقات الغالطين جاعلهم ثلاثة: طبقة غلطت في الأصول لجهلهم بالأصول الشرعية وطبقة غلطت في الفروع (يعني الآداب والأخلاق، والمقامات والأحوال) وهذا لقلة علمهم بالأصول وطبقة ثالثة أخطأت هفوة وزلة إذا تنبهت إلى الخطأ عادت إلى طريق الصواب وسدوا الخلل ولموا الشعث، وفي تفصيل الشيخ لهذه الطبقات يتعرض لأصحاب النظريات أو بذورها على الأقل تلك التي يظهر فيها الأثر الأجنبي، فيفندها ويبين وجه الخطأ وسببه الحقيقي، كل ذلك بنقد موضوعي، وأدلة مقنعة.

ولم يكن الطوسي هو فارس هذا الميدان وحده، وإن كان واضع أساس هذا المنهج النقدي إذ بعده جاء أبو عبد الرحمن السلمي

(ت 412 هـ) فكتب رسالة مفردة في غلطات الصوفية كان جل ما فيها - باستثناء الفصل الذي رد فيه على القائلين بالحلول - صدى لما ذكره السراج، وتتابعت الكتابات، فكان ما ذكره القشيري في رسالته (ت 465 هـ) وما ذكره الهجويري (ت 465 هـ تقريبًا) في كشف المحجوب، وما ذكره الغزالي ت 505 هـ) في كثير من كتبه، بل وسرت هذه الروح الناقدة إلى عصرنا فوجدنا بعض المحققين من مشايخ الطرق يؤكدون حرصهم على التزام بالكتاب والسنة ويذكرون أن من يخالف هذا فتبرأ منه الصوفية كما يبرأ منه كل مسلم.

وبمنهجهم ينبغي أن نقرأ تراثهم لنحكم عليه ونفيد منه، مفرقين بين حالاتهم تلك التي يعذر فيها صاحبها وتلك التي يحكم فيها الكتاب والسنة كما يحكمان في حياة كل مسلم، وبمنهجهم نمتدح الحق ونذم الباطل في ضوء المقاييس الشرعية المعلومة.

* * *

# خاتمـة

من تعاليم العارف بالله الإمام أحمد الرفاعي رضوان الله عليه: كل حال القوم من أولهم إلى آخرهم تحت أربع درجات - درجات العلماء والفقهاء:

**فالدرجة الأولى**: درجة رجُل طلب العلم للممارات والجدال والتفاخر وجمع المال وكَثرة القيل والقال. **والدرجة الثانية**: درجة رجل طلب العلم لا للمناظرة ولا للرياسة ولكن ليحسب في عِداد العلماء فيُمدح بين أهله وعشيرته وأهل قريته مكتفيًا بهذا المقدار متمسكًا بالظاهر لا غير. **والدرجة الثالثة**: درجة رجُل حل عويص المشكلات وكشف دقائق المنقولات والمعقولات وغاص بُحورَ الجَدل مُضمر الهمّة لنصرة الشرعِ في أحواله إلا أنه أخذته عِزة العلم على من هو دونه. وإذا انتصر للشرع وعورض بدليل اختطفته نصرة نفسه فأفرط وأقام الأدلة على خصمه وشنّع عليه وربما كفره بلا حق وطعن فيه وهجم عليه هجوم الحيوان المفترس مع عدم رعاية الحد المحدود شرعًا في كل حال من أحواله وأحوال خصمه. **والدرجة الرابعة**: درجة رجل علّمه الله فنصب نفسه لتنبيه الغافل وإرشاد الجاهل ورَدّ الشارد ونشر الفوائد والنصيحة وإنكار ما يُنكر شرعا وقَبول ما يُقبل شرعًا بحسن التجرد من الغرض. يرى أن الحسن ما حسنه الشرع والقبيحَ ما قبّحه الشرع. يأمر بالمعروف أمر حكيم غير غليظ ولا فظ، وينهى عن المنكر نهيَ مشفقٍ غير ظالم ولا عادّ. فصاحب الدرجة الأولى سيئ، وصاحب الدرجة الثانية محروم، وصاحب الدرجة الثالثة مغرور، وصاحب الدرجة الرابعة عارف.

إن نهاية طريق الصوفية نهاية طريق الفقهاء، ونهاية طريق الفقهاء نهاية طريق الصوفية. وعقبات القدح التي ابتلي بها الفقهاء في الطلب هي العقبات التي ابتلي بها الصوفية في السلوك. والطريقة هي الشريعة والشريعة هي الطريقة. والفرق بينهما لفظي، والمادة والمعنى والنتيجة هي واحدة..

هذا آخر ما قدره الله - عز وجل - على يدنا من محاولة لبيان حقيقة التصوف باعتباره مرتبة الإحسان في الدين.. وأتمنى من القارئ لهذا الكتاب ألا يفهم كلامنا فيه إلا على مقتضى ما أسسنا قواعدنا عليه من قواعد أهل السنة والجماعة وليحذر كل الحذر أن يلقى إليه الشيطان معنىً فاسدًا عند مطالعة كلامنا ويوهمه أن ألفاظ كلامنا تشير إليه.. فيكون زائغًا عن طريق الله - تعالى - الحق وعن مقصودنا بذلك فيكون مفتريًا على الله وعلينا.. فإن الله تعالى ما أمرنا بالاستعاذة عند تلاوة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إلا لعلمه تعالى بأن الشيطان قد يلقى في أفهامنا ما لم يكن صوابًا من معاني كلام الله تعالى عند قراءة القرآن.. فكيف لا يلقى في الأفهام غير الصواب عند سماع كلام عبد مخلوق لا سيما ممن هو من عامة المؤمنين.. وأسأل الله تعالى أن ينفع بكتابي هذا إخوتي المسلمين وأن يوفقهم في فهمه على طريق الصواب وأن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين وان يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولمشايخنا وأمهاتنا وآبائنا وأبنائنا والمسلمين أجمعين.. إنه سبحانه وتعالى ولى ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيـم الحلبـي

دمياط – جوال 0172015307

* * *

# المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1- صحيح البخاري: ط مكتبة الإيمان بالمنصورة سنة1404هـ.

2- صحيح مسلم: ط الشعبي القاهرة سنة1404 هـ.

3- ابن تيمية: مجموعة الفتاوى - المكتبة السلفية القاهرة سنة 1390هـ - التحفة العراقية في الأعمال القلبية ط المكتبة السلفية 1386هـ.

4- ابن خلدون: المقدمة تحقيق الدكتور وافي / ط لجنة البيان العربي سنة1960.

5- ابن القيم: مدارج السالكين ط مكتبة الإيمان بالمنصورة سنة 1999.

6- أبو النصر السراج: اللمع - حققه دكتور عبد الحليم محمود ود. سرور ط / دار الكتب الحديثة - القاهرة سنة1960.

7- أبو حامد الغزالي: إحياء علم الدين ط / الحلبي سنة 1939.

8- ابن الجوزي: تلبيس إبليس دار الحديث بالقاهرة 1820 هـ.

9- أحمد الشرباصي: الغزالي والتصوف الإسلامي ط / دار الهلال القاهرة بدون تاريخ.

10- د. إبراهيم هلال: التصوف بين الدين والفلسفة - ط دار النهضة العربية - القاهرة سنة1975 - ولاية الله والطريق إليها / ط دار الكتب الحديثة القاهرة سنة 1969.

11- د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي - ط دار الثقافة القاهرة سنة 1974.

12- ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن ط الحلبي سنة 1940.

13- د. حامد طاهر: التصوف الإسلامي ومصادره وموضوعاته - ط كلية دار العلوم جامعة القاهرة بدون تاريخ.

14- د. محمد مصطفي حلمي: ابن الفارض، والحب الإلهي ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1942 - الحياة الروحية في الإسلام / ط الحلبي سنة 1945.

15- د. محمد كمال جعفر: التصوف طريقا وتجربة ومذهبا - دار الكتب الجامعية بالإسكندرية سنة 1970.

16- د. السيد محمد المهذلي: البدعة في العقيدة والتصوف ط / دار الحديث القاهرة سنة 1993.

17- د. سعاد الحكيم: الجنيد بن محمد تاج العارفين ط / دار الشروق القاهرة 2005.

18- شهاب الدين السهروردي: عوارف المعارف على هامش الإحياء ط / الحلبي بمصر سنة 1939 م.

19- الشعراني: لطائف المنن والأخلاق/ ط الحلبي 1315هـ.

20- القشيري: الرسالة القشيرية / ط الحلبي 1940.

21- د. أبو اليزيد العجمي - نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي ط - المكتبة الأزهرية القاهرة 2006.

22- عبد القادر عيسى.. حقائق عن التصوف ط - المكتبة التوفيقية القاهرة 2004.

23- شمس الدين الذهبى.. تذكرة الحفاظ . ط دار الحديث القاهرة 1998.

* * *

# الفهـرس

تقديم ........................................................................ 3
مقدمة ........................................................................ 5
تعريف التصوف................................................................ 12
كلمة الصوفية:................................................................. 12
نشأة التصوف:.................................................................. 14
مفهوم التصوف:................................................................ 15
التصوف مرتبة الإحسان:.................................................... 18
الجانب النفسي في التجربة الصوفية: ..................................... 23
المستوى الأول:................................................................. 23
المستوي الثاني: ................................................................ 24
المستوي الثالث: ................................................................ 24
أنواع النفس: .................................................................... 27
1- النفس الأمارة: ................................................................. 27
2- النفس اللوامة:................................................................. 27
3- النفس المطمئنة: .............................................................. 27
الإلهام كوسيلة للمعرفة لدي الصوفية: .................................... 29
شواهد الشرع على صحة طريق الصوفية في اكتساب المعرفة عن طريق الإلهام: .................................................................... 33
(ب) اصطلاحات مشيرة إلى الأحوال في الطريق الصوفي: ............... 36
المحبة: ........................................................................... 36
القبض والبسط: ................................................................ 37
الفناء والبقاء: ................................................................... 37
الجمع والتفرقة:................................................................. 38
ومن أقوالهم التجلي والاستتار: ............................................... 39
ومن أقوالهم التجريد والتفريد:................................................. 40
ومن أقوالهم الغلبة:............................................................ 41
ومن أقوالهم المسامرة: ....................................................... 41
ومن أقوالهم السكر والصحو:.................................................. 41

ومن أقوالهم المحو والإثبات: ........ 41
ومن أقوالهم علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين: ........ 42
ومن أقوالهم الوقت: ........ 42
ومنها الغيبة والشهود: ........ 42
ومن أقوالهم الذوق والشرب والري: ........ 43
ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة: ........ 43
ومنها الطوارق والبوادي والباده والواقع والقادم والطوالع واللوامع واللوائح: ........ 43
ومن أقوالهم التلوين والتمكين: ........ 43
ومن أقوالهم (النفس) بفتح النون والفاء: ........ 44
ومنها المشاهدة والمعاينة: ........ 44
ومن أقوالهم المعرفة: ........ 45
ومن أقوالهم الحرية: ........ 45
ومن أقوالهم الولاية: ........ 45
صفة أرباب النهايات في الطريق الصوفي: ........ 46
علامات الولاية لدى الصوفية: ........ 49
والولى الوارث المحمدى علامات يعرف بها: ........ 51
من هم أولياء الله؟ ........ 52
حرمة معاداة أولياء الله: ........ 53
درجات الولاية: ........ 53
آثار محبة الله لأوليائه: ........ 56
إجابة دعاء الولي: ........ 57
مفهوم العبادات عند الصوفية: ........ 57
الصــلاة: ........ 57
الزكـــاة: ........ 60
الصيـــام: ........ 61
الحــج: ........ 63
أدعياء التصوف: ........ 64
موقف كبار علماء الأمة من التصوف والصوفية: ........ 66
الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: ........ 67
الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ........ 67
عبد القاهر البغدادي رحمه الله تعالى: ........ 68
الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى: ........ 68

العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: ........................................... 69
الإمام النووي رحمه الله تعالى:........................................... 69
الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: ........................................... 70
ابن خلدون رحمه الله تعالى:........................................... 71
تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى:........................................... 71
جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى: ........................................... 72
الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله:........................................... 72
الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله:........................................... 73
الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله:........................................... 75
الإمام الغزالي رحمه الله: ........................................... 76
شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ........................................... 77
العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله: ........................................... 78
نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي........................................... 79
مدخل: التصوف بين الصيت والرؤية العلمية: ........................................... 79
ضوابط منهجية لقراءة التصوف الإسلامي:........................................... 81
ثانياً: ضرورة القراءة في تجرّدٍ واستقلال فكري:........................................... 86
ثالثاً: التفرقة بين أقوال الصوفية وروايات المؤرّخين عنهم: ........................................... 90
أ - مسألة الصُفّة وربط التصوف بصفات أهلها: ........................................... 91
رابعًا: ضرورة تحديد المصطلحات المتصلة بالتصوف الإسلامي:........................................... 96
خامسًا: مراعاة طبيعة التصوف كتجربة ذوقية:........................................... 105
سادسًا: الحكم على الصوفية في ضوء أحوالهم: ........................................... 108
حالات الصحو واليقظة: ........................................... 110
الفكر الصوفي والتنبيه إلى غلطات بعض الصوفية:........................................... 112
خاتمـة ........................................... 115
المصادر والمراجع........................................... 118
الفهرس........................................... 121

* * *